زين الواحة

رواية

التنسيق والإخراج والمراجعة اللغوية

د. صلاح شفيع

المركز العربي للمراجعات والاستشارات الأدبية وخدمات ما قبل الطباعة .

سعاد أبو الحمد

زين الواحة

رواية

٢٠٢٠

إهداء

مقدمة

ترى هل كان يمكنني الاختيار ؟؟

أم أكون أنا من وقع الاختيار عليه؟؟

ولماذا أنا؟

زين ..

الفصل الأول

- زين ! زين !

قفز زين على يد تدفعه بقوة تحثُّه على النهوض من فراشه في تلك الساعة المتأخرة من الليل يد غريبة شعر بثقلها لكنه لم يشاهدها حتى ظنَّ أنَّه حلم إلى أن تكرر الأمر كثيراً. فلم تكن هذه المرة الأولى التي تدفعه تلك اليد القوية والصوت الآتي من السراب العميق كي يترك فراشه في نفس الساعة من الليل منذ عشرة أيام متتالية. لم يستطع بعدها تذوق طعم النوم مرة أخرى ليظل مستيقظاً تدور برأسه عشرات الأسئلة .

لا يؤنس وحدته في هذه الخيمة الصغيرة أحد ليظل وحيداً إلى أن يرخى التعب جفونه المنهكة من الفزع كل ليلة ليذهب في نوم متقطع تتخلله نوبات من الفزع لا تتجاوز ساعات قليلة ليصحو بعدها منهك القوة.

وبيد مرتعشة ارتدى زين عباءته وانطلق خارج خيمته لينظر إلى الفناء العجيب في تلك البقعة من الأرض التي يقطن بها وقبيلته منذ عشرات السنين ففي هذه الواحة الخضراء الممتدة الأطراف،

التي تحيطها وتحضنها الجبال الشاهقة ، يجوس بينها نهر صغير فاجتمعت هنا فتنة الطبيعة من روعة المناظر ، ورقة الهواء ، وعذوبة المياه، وكأنها أم تحضن أطفالها بعيداً عن عيون الغرباء.

ولو كان هذا المكان قفصاً لاختار الإنسان أن يكون طائراً سجيناً مع كل هذا السحر والجمال، وبخطى متثاقلة جلس بجوار إحدى أشجار النخيل المنتشرة بالواحة التي تدلت ثمارها بألوانها الزاهية المتنوعة الجميلة

فزراعة النخيل هي تجارة أهل الواحة الرئيسة والهامة كل عام أم باقي فصول السنة فتتنوع صناعتهم وتجارتهم على بعض الحرف اليدوية من تطريز الملابس الذي تتميز به صناعات البدو أو منتجات أخرى.

ثم نظر إلى السماء كمن يبحث عن إجابة لسؤاله الحائر وأحاط رأسه بزراعيه، وأخذ يفكر في تلك الأحلام التي تراوده منذ فترة، ولم يعرها أدنى أهمية فهي لم تكن بالنسبة له سوى مجرد أحلام، أو مجرد كوابيس. ثم تطور الأمر سريعاً حتى كاد أن يرى أحلامه وكوابيسه أثناء يقظته، ولم يعط أيضاً أهمية كثيرة لهذا الأمر حتى ظهرت في لياليه تلك اليد القوية التي دامت على إيقاظه منذ عشرة أيام متتالية. مما جعله يشعر أخيراً بالخوف والهلع.

نظر زين إلى السماء ثم تكوَّر على نفسه ، ودسَّ رأسه بين زراعيه تحت شجرة النخيل بجوار خيمته وأخذ يتساءل. ماذا يحدث لي؟ ولماذا؟

***

ارتفع صياح الديكة ، وتراقصت أغصان الأشجار مع نسمات الصباح العليل وخرير المياه ، ثم تعالى تغريد البلابل والعصافير المنتشرة على فروع الأشجار معلنةً بداية يوم جديد، ولم يكن يعلم أن هذا اليوم هو أيضاً بداية لكثير من الأحداث الخطيرة لتشطر حياته الهادئة منذ سنوات طويلة إلى طريقين ، وارتفعت الهمسات من داخل الخيام المنتشرة بالواحة الصغيرة ، وهاهم أهلها قد هبوا من نومهم كلٌّ يتفقد خارج خيمته احتياجاته اليومية فهناك من يقدِّم الطعام للغنم التي ترعى بجوار الخيام ، وبعض النسوة حملن الجرار المصنوعة من الفخار ذلك الطمي المحروق الذى يصنع منه بعض أواني الطعام والشراب لإحضار المياه من النبع القريب تلك العين الصافية بصفاء السماء .كل شيء هنا في هذه الواحة لم تلوِّثه يدى البشر المهملة فأصبح بهياً جميلاً كما هو على فطرته .

كان زين مازال جالساً في موضعه منذ ليلة أمس ينتظر نور الصباح بمشاعر تحفها اللهفة والخوف و الصبر كمن يتلمس شربة ماء في صحراء قاحلة ،ونظر حوله وتنفس الصعداء وانطلق مسرعاً نحو خيمة كبير القبيلة في ذلك الوقت الباكر من اليوم ، فلم يعد يستطيع أن يتجاهل هذا الأمر أكثر من ذلك ، ولم يستطع الانتَظار بعد الآن. وارتفع ندائه عالياً كمن يستغيث :

ـ سيدي ! سيدي ! لابد أن أراكَ الآن!

وخرج على صياحه العالي مسرعةً من باب الخيمة فتاة شابة على مشارف العشرين من عمرها لم يظهر من وجهها المتلحف بوشاح مطرز بألوان مبهجة سوى تلك العيون المرسومة بالكحل الأسود فكان لبريقها سحر يأسر الفؤاد، ولكنك لن تستطيع الاقتراب أكثر فتلك الرموش تقف على معبد هذه العيون الساحرة تحرس ذاك الجمال الآسر. كانت هذه الفتاة ابنة كبير القبيلة ومساعدته. فقالت بصوت هادئ.

-ماذا تريد يا زين؟ ألا تعلم أن كبير القبيلة لا يقابل أحداً في ذلك الوقت؟ ارحل حتى زوال الشمس ثم عد ، سيكون في مجلسه كسائر الأيام، وقتها تستطيع أن تقابله كما يفعل كل أبناء القبيلة.

- لا أستطيع يا هند، فأنا لم أنم منذ عشرة أيام، وأكاد أجن أريد أن ألاقي سيدي ..

كان لقب سيدي يطلق على كبير القبيلة ، نظرت هند إلى تلك الأيدي المرتعشة والوجه المرهق فلان قلبها لقصة الشاب وقالت في نفسها يبدو أن هناك أمراً ما، ثم قالت:

ـ أنتظر وسأوافيك بالرد.

وانتظر زين دقائق قليلة كانت تعد أطول من الساعات، وخفق قلبه بشدة، وأعاد السؤال مرة أخرى على نفسه :

ـ ماذا يحدث لي؟

ليرى هند تندفع مسرعة خارج الخيمة بعيون يملؤها الهلع وصوت مرتعش وقالت:

ـ سيدي ينتظرك بالداخل !

وتنحت بعيداً عن طريق الشاب الذي اندفع مسرعاً إلى الداخل تتبعه عيون هند التي ملأتها الرهبة والخوف، ثم انطلقت بالداخل خلف زين.

اقترب الشاب من كبير القبيلة بهدوء وسكينة ، فقد كان الرجل ضخم الجسم مهيب الشكل بسيط الملبس ككل أفراد أهل الواحة، وعندما رأى الهلع على وجه زين ابتسم قليلاً ليهدئ من روعه ، وأجلسه بجواره ثم قال:

ـ تقول هند إن شكواك لا تُؤجَل إلى زوال الشمس حيث ننظر في أمور أهل القبيلة. فماذا بك؟

ثم نظر إلى هند وأمر بإعداد قهوة وفطور كي يتناول الشاب طعام الفطور معهم. فقال زين بصوت يملأه الخوف ، ومن شده هلعه نسى أن يشكر كبير القبيلة عن حسن ضيافته ، فقال مرتجفاً :

- سيدي منذ عشرة أيام لم أذق النوم ولم يسبل لي جفن إلا قمت بعد دقائق قليلة كل يوم على يد قوية تحاول إيقاظي وكأن صاحبها يصرخ في أذني كي أنهض ثم أنهض مفزعاً ، ولا أستطيع النوم بعد ذلك، لم أعرف ماذا حلَّ بي، وكما تعلم سيدي أنا ليس لي أحد هنا فأنا كما تعلم وحيد ولا أعلم عن حياتي السابقة شيئاً ؟

ـ أعلم يا بني كل شيء عنك، هيا اقترب منى وأعطني يدك كي نرى ما هو الجديد بحياتك؟

ونظر كبير القبيلة وهو يتناول يد زين نظرة يملؤها التوتر، ولكن لم يشء أن يراها الشاب في عينه، وكيف لا يتوتر وهو يعرف من يكون هذا الشاب كما يعلم قصته كاملة ، بل ويراقبه عن كثب ، ولكن هل جاء اليوم الذي يخشاه؟

نظر كبير القبيلة إلى يد زين بعض الشيء، وقد قرأ بعض التعاويذ على شيء أشبه بالزيت، ثم دهن بها يد الشاب ، ثم نظر مرة أخرى لتلك اليد، وهنا لم يستطع أن يخفي هلعه وذهوله ففتح فاه عن آخره واتسعت عيناه من الهلع والخوف، ونظر الشاب إلى وجه كبير القبيلة فتعالت ضربات قلبه متسارعة ، ثم قال بصوت متقطع:

ـ أهناك شيء سيدي؟

انتبه كبير القبيلة لذلك ، وحاول أن يسيطر على انفعاله ، ويخفي مكنون قلبه وعقله عن الشاب فقال مبتسماً :

ـ لا شيء هام يا زين ، بعد أن نتناول الفطور سأقول لك كل شيء وها هي هند قد أحضرت لنا الطعام فهيا بنا.

وتبادل كبير القبيلة وابنته نظرة خاطفة يملؤها القلق.

جلس كبير القبيلة بجوار الشاب يتناول طعام الفطور وقد أطبق على المكان الصمت التام إلا من نظرات بين هند وأبيها لم يرها الشاب الذي أسرع إلى التهام الطعام وكأنه لم يتناوله منذ زمن طويل. كانت نظرات هند وأبيها تحمل كثيراً من الأسئلة ، وكثيراً من المخاوف ، وكيف لا يخاف من يعلم سرَّ هذا الشاب.

وامتدت يد كبير القبيلة إلى قطعة من الخبز، ولكن يده وقفت ولم يستطع أن يرفعها إلى فمه ، بل ذهب بها بعيداً منذ عشرين عاماً مضت لما وجد طفلاً صغيراً يبكي بجوار إحدى أشجار النخيل وبالقرب من النبع فامتدت يده بقطعة الخبز إلى فم الصغير فأطعمه وأواه، وكيف لا يعرف؟ وهو كبير القوم ويعلم كل ما يجول بتلك الواحة، ولكن من يكون ذلك الطفل الغريب؟ من يكون الصغير؟ هل كان على خطأ أم كان على صواب حين آوى ذلك الصغير ؟ ولم يخش شيئاً كأهل الواحة الذين دب الخوف في أوصالهم حين رؤية الصغير؟

***

نعم مضت عشرون عاماً وكأنها الأمس على وجود ذلك الفتى بيننا زين هذا الاسم الذى أطلقته أنا على هذا الصغير ذي الشعر الأصفر والعيون الزرقاء حيث كان غريب المظهر لم يشبه أحداً قط من أبناء الواحة التي لفَّحت الشمس بشرتهم فاكتست بسمرة الطبيعة البكر وتساءل:

- نعم مضت عشرون عاماً منذ وجدته يبكي بالقرب من خيمتي طفلاً لا يتعدى عمره ثلاثة أعوام أو تزيد قليلاً، وقد علمتُ أنه ليس من أهل الصحراء؟ ولكن لماذا أتى إلينا ومن جاء به إلى هنا؟ هذا الصغير الذى لم يعلم حتى الآن من يكون، ولم أتخل عنه، وكنتُ على يقين أنى أستطيع أن أعيد ترتيب طريقه، فكنتُ أراقبه عن كثب، ولم أكن أعلم أن القدر يستطيع في لحظة أن يخطفكم من حياتكم الأمنة ليلقى بك في مصير لم تتخيَّل يوماً أن يكون أو أنك ستمشى عبر دروبه بخطى مثقلة لا تمت لحياتك قبل صفعة القدر بأي صلة، ولكنك مجبر على المضي ، وعلى الاستمرار والمثابرة فقط لأجل النجاة، وتحمل صدمة الواقع وتلك المتغيرات الصادمة.

عشرون عام وأنا مُتلفِّح بهذا الكابوس الصادم ولم أستطع مشاركة أبناء الواحة في ذلك الكابوس الرهيب فقد أنذرني أهل قبيلتي من ذلك الصبي، ولكنى قد اخترته للبقاء ، ولا أعلم إن كنت أنا من أختاره أم أن هذا الصغير من اختارني؟

منذ سنوات قليلة كان علىَّ مشاركة هذا السر مع ابنتي هند بعد رحيل أمها. كان لابد أن يحمل أحد ما سر هذا الكابوس إذا ما لحقت

بزوجتي حتى لا تضيع الواحة، ويقضى على أبناء جنسنا هنا في تلك البقعة البعيدة والمنعزلة عن العالم. قد يطلق عليها البعض بقعة نائية، ولكننا نجد في عزلتنا كل الرخاء والسعادة بعيداً عما أعلمه عن العالم خارج نطاقنا، وإن كان كثير من أهلي لا يعلمون عنه شيئاً. فهنا لا مجال إلا للطبيعة الأم بعيداً عن غزو الإنسان من وسائل رفاهية كان يظن أنَّ فيها راحته وفيها سعادته حتى جاء اليوم ووجد أن ما صنعه سيكون عما قريب سبباً في إبادته وعلله. فأطلق لنفسه العنان ونسى أن يطلق للروح سراحها لتهنأ بما تريد أيضاً.

استيقظ من شروده على كلمات زين الذى أخذ يردد في صوت هامس :

ـ سيدي. سيدي. هل هناك شيء يزعجك؟ لماذا لا تتناول طعامك؟

ونظر إلىقطعة الخبز التي مازالت بيده ، ثم تناولها في بطء شديد فلم يكن وحده المنزعج، ولكن شاركه هذا الانزعاج والقلق ابنته هند فلم تستطع هي الأخرى تناول طعامها، وهبت واقفةً مما أثار دهشة زين لما يراه من قلق كبير القبيلة.

ولمحت هند عيني زين الملاحقة لها والتي حملت كثيراً من الأسئلة ابتسمت ابتسامة باهتة وادعت أنها ذاهبة لأعداد القهوة وانطلقت مسرعة إلى الداخل عسى أن تبعد عن عينيه التي أخذت تتساءل في صمت.

كانت تحاول أن تخفى عينيها العاجزتين عن إجابة أي سؤال حتى

لم توفق في إخفاء ذعرها، ووقفت بعيداً تترقب ما يدور بين الشاب وبين أبيها وساد صمت مطبق. ومضت الدقائق كأنها دهر .

أنهى زين طعامه مسرعاً عسى أن يجد عند كبير القبيلة الإجابة على ما جاء بشأنه، فكان ينظر إلى هند حيناً وإلى أبيها حيناً أخر عسى أن ينتهي من تناوله لطعام الإفطار الذي لم يتناول منه سوى قطعة واحدة من الخبز حتى أنه لم يكملها بسبب شروده وعيون الحائرة بينه وبين ابنته.

وأخذ يتساءل في صمت هل حقاً قد حان الوقت؟ ثم برقت عيناه فجأة وهب واقفاً مسرع الخطى إلى داخل غرفته التي لم تكن سوى جدار من القماش السميك يفصل بينه وبين هذا المكان داخل هذه الخيمة.

وبيد مرتعشة مدها بحذر إلى صندوق صغير من الخشب موضوع بأحد أركان الغرفة يوجد بداخله بعض الملابس والأدوات الشخصية التي رفعها في بطء شديد ليتنفس الصعداء قائلاً :

ـ ها هو مازال في مكانه منذ تلك السنوات البعيدة ولكن يبدو أن موعده قد حان لنعيد رؤية ما به.

ثم أعاد ملابسه مرة أخرى فوق ذلك الشيء وأغلق الصندوق مرة أخرى وبشدة كأنما يحاول حبس ما بداخله من أسرار. جلس على حافة فراشه بتلك الغرفة وأطلق لمشاعره العنان بعيداً عن عيني زين المترقبة. وتساءل مرة أخرى وقد استبد به الهلع وتذكر ، نعم عليه أن يتذكر ويسترجع الماضي كاملاً أمام عينيه مرة أخرى حتى

لا ينسى منه صغيرة أو كبيرة. كل التفاصيل التي قد يكون نسيها، أو لم يعرها اهتمام في ذلك الوقت قد تكون ذات أهمية كبرى اليوم. وقال نعم يجب أن أعود بالماضي منذ عشرين عاماً !

الفصل الثاني

كانت ظلمة الليل لا تزال باقية عندما استيقظت ذلك اليوم على صراخ زوجتي التي جاءها ألم المخاض، وحان وقت وضعها لطفلنا الأول بعد عدة سنوات من الزواج. حتى أشار البعض على أن أتزوج مرة أخرى، ولكنى كنت دائماً أرفض ذلك الأمر ، وكيف يمكنني أن أفعلها؟ ولم أرَ من زوجتي سوى الصفات التي يحب أن يراها الرجل في أهله، وأصبحت تمتلك فؤادي فلم يعد به متسع لغيرها. ومضت بنا السنوات إلى أن شاء ربي أن يكلل هذا الحب بحب آخر حب الأب لطفل جديد، لحكمة هو وحده يعلمها.

ولم أعلم حينذاك تلك المشاعر الغريبة والمختلطة بين الفرح والقلق التي تولدت في ذلك الوقت مع ولادة طفل جديد وخاصة إن كان هذا الطفل هو الأول، أكانت الرهبة أم الفرحة؟ أم ماذا؟

وخرجت من الخيمة بعجالة في انتظار قابلة الواحة التي جاءت مهرولة وابنتها خلفها تحمل على رأسها بعض الأشياء في سلة صُنِعت من سعف النخيل ، وأسرعت لداخل الخيمة، وانتظرتُ في

الخارج متلهفاً ومشتاقاً لصوت الصغير الذي كنت أحنُّ إليه منذ سنوات بعيدة.

وتباطأت الدقائق والساعات لتلقى الشمس بخيوطها الذهبية معلنة بداية يوم جديد، وتساءلت وأنا أرقب مطلع الشمس التي أرسلت نورها يداعب سعف النخيل ؛ فأيقظ ما تبقى من البلابل التي لم تترك بعدُ أوكارها، وتساءلت هل هناك بهجة في الحياة لشيء آخر غير الذي أشعر به الآن؟ ثم ابتسمت في انتظار أن ألمس تلك الأصابع الصغيرة والعيون التي لن ترى من الدنيا أولاً سوى عينيَّ، تلك اليد الصغيرة التي سأعتني بها جيداً كي تعتني بي عند كبري، وأتكؤ عليها في شيخوختي، وأخذت أفكر ماذا عساي أن أطلق علي الصغير من اسم؟ هل أسمِّيه فارس؟ أما أسمِّيه مهاب؟ أم أسميه ...! وقطع حبل أفكاري بكاء طفلي أتى من الداخل يعلن قدوم هدية جديدة إلى الدنيا وفرحة كلَّلتها السماء لقلب القلب.

وخرجت القابلة مسرعةً فور انتهاء مهمتها، ولم يكن بعينيها شيء من السعادة. حتى أنها ألقيت إليَّ بكلمة مبارك سيدي، وهمَّت مسرعةً بالرحيل دون أن تنتظر أجرها، أو ما تطلبه بسعادة من هدايا من عائلة المولود كما تفعل دائماً، وابتسمت بيني وبيني نفسي فقد كنت أعرف تلك النظرة الحزينة! ولماذا؟ فقد علمت أن المولود أنثى، وليس ذكراً، لكنها لم تعلم أن هذا لم يغيِّر من مشاعري شيئاً ، وكيف لي أن أحزن كما يحزن البعض هنا إنْ بُشِّر أحدهم بالأنثى ألا يكفي أنها هدية السماء لي بعد سنوات طويلة من الحرمان. نعم

هنا في تلك البقعة النائية والبعيدة عن العالم والبعيدة عن الحضارة لا نعلم من الدنيا غير أنها الأرض والسماء والطبيعة التي تحتضننا في رحاب وحرية ، وإن كان بعضنا يجيد القراءة والكتابة من بعض مخطوطات وكتب تراث الآباء فقد كان هنا من قبل عدة قبائل قد رحل بعضهم وتناحر وتقاتل الآخرون حتى لم يبق هنا سوى قبيلتنا في تلك الواحة منذ مئات السنين لا يعلم عن عالمنا أحد من البشر، هنا مازالنا نستعمل أدوات الطبيعة في الطعام، وفى العلاج، وفى البناء، وكل مقومات الحياة الأخرى.

أما أنا فأجيد بعض الأشياء الأخرى التي يجب لكبير القبيلة أن يعرفها وهي من الأسرار المتوارثة بعائله الحاكم أهمها فنون بعض السحر وقراءة الآخرين الذي يسميه البعض قراءة الأفكار والتخاطر استعداداً للدفاع عن القبيلة عند حدوث أي عدوان سواء كان المعتدي من البشر ، أو من الحيوانات ، أو مخلوقات أخرى نؤمن بوجودها في ذلك المكان، ولكنى لم أستعن بهذا الأمر كثيراً في مجتمعنا الهادئ .

ومضت السنوات لم أجد في مجلسي من الحكم سوى ما وجده أبى من بعض الخلافات ، وقحط العيش أحياناً الذى جعل كثيراً من شباب الجيل الحديث من أبناء الواحة يرحل إلى المدينة كي يتعلم، أو ينعم بحياة المدينة، أو يتخذ حرفة تدر علية دخلاً مرتفعاً ، فمنهم من باعدت الأيام بينه وبين أهله بالواحة وانقطعت أخباره ، ومنهم من مازال على وصل بينه وبين أهله هنا .

تكلَّلت سعادتي بميلاد طفلتي التي أراني أشتاق لرؤيتها ، تُرى هل تشبهني أم تشبه أمها في جمالها الرائع؟ الذي تسابق كل فتيان القبيلة من قبل على خطب ودها، ولكني كنت أنا من فاز بهذا الجمال الفاتن، والحسن الباهي والخلق النبيل حتى أصبحت أسيراً في محراب زوجتي الحبيبة ؛ فكانت سكني وسكينتي.

وانطلقت مسرعاً لداخل الخيمة حيث فراش زوجتي ومهد ابنتي التي نظرت لأول مرة في عينيها ؛ فوجدتها قد فاقت أمها حسناً وجمالاً ، فابتسمتُ وأنا أرى عيون زوجتي يملأها الحزن كعادة نساء قبيلتنا إذا ما أنجبن أنثى. ولكني قبَّلتُ جبينها في ودٍّ ونزعتُ هذا الحزن من قلبها مما أثار ذلك زهو الخادمة التي كانت تخشى هي الأخرى أن أفعل بهم كما يفعل رجال القبيلة إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى.

وهنا قالت :

ـ سيدي هل أنتَ سعيد بالابنة؟

فقلت لها:

ـ ولم لا أشعر بالسعادة؟! أليست الأنثى كالذكر؟

فهزَّت رأسها في تعجب !

وهنا قد اتخذت قراراً يُنفَّذ عند أول جلسة لأهل الواحة ، سأتكلم معهم في هذا الشأن فآن الوقت أن نغيِّر بعض العادات التي ورثناها عن الأجداد حيث لا يد لنا فيما أعطانا ربنا من منح ، ووهبنا من

الخيرات، ومضت الأيام، والأسابيع على احتفالات القبيلة بطفلتي، وهذا أيضاً كعادتنا المتوارثة عن الآباء والأجداد وهي إقامة الأفراح وموائد الطعام حتى أربعين يوماً على ميلاد المولود إذا كان ذكراً أما الأنثي فلا يُقام لها احتفال. أما ابنتي فكانت الأنثي الوحيدة التي أقيم لها الأفراح أربعين يوماً مثلها مثل الذكر تماماً كما ابتغيت ذلك.

ومضت الأيام سريعاً وكان اليوم الأخير من الاحتفالات المقامة على أرض الواحة، ذلك اليوم يستقبل أهل المولود الهدايا من الأهل والجيران والدعاء بالخير والبركة للمولود الجديد ، وكان على أهل المولود إطعام أهل الواحة ذلك اليوم ، فكانت تقام موائد الطعام في كل مكان ولا ترفع إلا وقت غروب الشمس كأن هذا اليوم مثل أيام الأعياد . يشارك في أعداد الطعام نساء القبيلة ويشارك الرجال في إعداد الموائد والتهام الطعام!

كان ذلك اليوم من الأيام المرهقة للجميع، بالإضافة لاستقبال الهدايا ومباركة المولود من الأهل والأصدقاء ولكن حدث شيء غريب حيث انتصف اليوم ولم يأت أي من أهل القبيلة لمباركة ابنتي وتقديم الهدايا كما هي عادتنا. حتى انتابني القلق وأخذت أفكر ماذا حدث؟ هل أهل قبيلتي يعدون مفاجأة لي؟ وابتسمت محاولاً دفع قلقي بعيداً، ولكن هيهات قد استبد بي القلق والحيرة، وأخذت أتساءل في نفسي ماذا حدث؟

ولم أنتبه إلا على صراخ أحدهم وهو يجرى نحو خيمتي آتياً من

بعيدا، وقد استبد به الخوف، والهلع، وأخذ ينادى مستغيثاً بي قبل أن يصل.

ـ سيدي ! سيدي ! أدركنا سيدي .

وخرجتُ مسرعاً فوجدت الرجل يصرخ مرة أخرى:

ـ سيدي ! سيدي ! هناك على ضفة النبع !

وانطلقتُ مسرعاً مع الرجل إلى ضفة النبع مصدر المياه الأكبر للواحة، وقد تجمع حوله الناس كبيرهم وصغيرهم واستبد بهم الخوف، والهلع، وعقدت الصدمة ألسنتهم وإن صرخت به عيونهم في صمت.

واقتربت في صمت، وما أن رأني الناس حتى تنحَّوا عن طريقي لأشاهد ما قد أدهشني أنا الآخر، وعقد لساني فقد كان بجوار النبع طفل صغير موضوع في مهد ، وقد تم وثاقه بعناية في هذا المهد كما كان بجواره رداء كبير الحجم، وبداخل هذا المهد قطعة من الورق طُوِيت بعناية وتم وثاقها في ساق الصغير الذي كان يغط في سبات عميق ، وأحاط ساقه وجسده الصغير كثير من لفائف القطن فاتزن في مكانه ولم يتمايل. لا نعرف إن كان الصغير الذي لا يتعدى عمره ثلاث سنوات أو تزيد قليلاً مصاباً أم مريضاً؟ حياً أم لا؟ أم ماذا يكون من أمره ؟؟

واقتربت منه بحرص ومددت يدي في محاولة مني أن أفك وثاقه من المهد، ولكي أرى ما بهذا الصغير الذي يدل مظهره الغريب على

أنه ليس من أبناء الواحة أبداً ؛ فقد كانت بشرته تختلف عن لون أهل الصحراء. بشرة داكنة اللون تقترب من السواد، ولون عينيه كان أيضاً شديد السواد اختلط بياض العين بحمرة واضحة، وأيضاً جعد الشعر، وفتح الصغير عينيه ببطء شديد كمن استيقظ من جرعة مخدر، لتتبدل صورته إلى رقة وجمال ، وبرغم هيئته المختلفة تماماً عن أهل الواحة فقد كان الصغير شديد الوسامة، وكانت عيناه أيضاً تدل على أنه غريب ، فلم يحمل أي من أهل واحتنا تلك العيون الزرقاء من قبل، ولكن من أين جاء ذلك الصبي إلى هنا؟ ومن يكون. ومن أتى به إلينا؟

***

أخذ كبير القبيلة الصغير ولملم ما معه من الثوب الملقى بجواره وأيضاً مهده المصنوع من البلاستيك وسط صرخات الفزع من الناس ثم التفت إلى شعبه قائلاً ومهدئاً من روعهم:

ـ سآخذ الصغير إلى بيتي لأطعمه ثم أبحث عن حكايته وكيف جاء إلينا.

لم يكن زعيم القبيلة رجلاً عادياً مثل باقي رجالها، ولكنه كان يحمل من العلم الكثير، مما توارثه عن آبائه وأجداده كما كان يعلم من تعاليم السحر ما يجده أهله في هذه الأماكن النائية التي قد تنعدم فيها سبل الحضارة الحديثة.

وانطلق الرجل إلى بيته وزوجته التي لم يمض على وضع حملها

سوى أربعين يوماً .

وتقدم إلى زوجته وقصَّ عليها الحكاية ، وطلب منها أن تطعم ذلك الصغير ثم يرى من أمره ما يكون. واقتربت المرأة مستبشرةً بذلك الصغير حتى أنها أطلقت عليه[طفل من السماء] ، وكان قبولها للطفل مما أدخل السعادة إلى قلب زوجها الذي كان يتوجس أن ترفضه زوجته أو تهابه كما كان من أهل البادية. فترى هل حقاً هذا الطفل من السماء؟ وهل هذا القادم من السماء خير أم تراه سيكون شراً لأهل الواحة الصغيرة؟

مَن أنتَ أيها الصغير؟ سؤال لاح بخاطر زعيم القبيلة وهو يلقي النظرة الأخيرة عليه قبل أن يتركه لزوجته. ويخرج إلى شعبه الذي ينتظر في القاعة الكبيرة محتشدين من أجل هذا الأمر الغريب فقد كانت تلك عادتهم إذا ما كانت هناك قوانين جديدة، أو النظر في شكوى أهل الواحة، أو كان هناك أمر ما احتشد الجميع في القاعة الكبرى.

***

لم يكن في هذا اليوم موضع فارغ في القاعة الكبيرة فقد اكتظت بأهل الواحة صغيرهم وكبيرهم كلٌّ جاء ليعرف من يكون هذا الصغير ، ومن أين جاء؟

واتخذ الزعيم موضعه وسط شعبه في ذلك المكان المتواضع الذي شُيِّد من جزوع أشجار النخيل فكان عبارة عن سقيفة افترش

الأرض تحتها بساط مصنوع من ليف النخل وسعفه ، أما مجلس كبير الواحة فلم يكن سوى وسادة كبيرة توسطت هذا المكان.

ودنا الأهل والأصدقاء من الرجل الذي بدا مبتسماً لعل ذلك يبثُّ في نفوس شعبه بعض الطمأنينة ثم قال:

ـ لا داعي للهلع . هذا الطفل هو إنسان مثلنا تماماً ونعلم جميعاً أننا لسنا البشر المنفردين على الأرض ، فهناك بشر آخرون في كل مكان ففي الأرض متسع للجميع، قد تختلف ألواننا وألسنتنا أيضاً. فلا داعي للانزعاج ـ وإلى حين أبحث عن هوية هذا الطفل ، ومن أين جاء إلينا أطمئنكم أنه سيظل في بيتي إلى ذلك الحين.

بعث فيهم قول كبيرهم بعض الطمأنينة ؛ فاقترب بعضهم بحب قائلاً:

ـ سيدي نعلم أن اليوم هو الأربعين لميلاد الصغيرة فما جئنا الآن بسبب هذا الصغير الذي وجدناه بجوار النبع، ولكن جئنا من أجل حفلنا لذلك اليوم السعيد ، وتقبَّل سيدي هديتي إلى الصغيرة.

ثم توالى الجميع في تقديم الهدايا ؛ مما أدخل البهجة عليهم في نهاية هذا اليوم الغريب.

كان الرجل يبتسم ويداعب شعبه محاولاً إخفاء الرهبة التي في نفسه منذ جاءه نبأ هذا الطفل.

***

ثلاثة أيام مضت منذ اجتماع الزعيم بشعبه. لم يره أحد كعادته

كل يوم، ولم يخرج من خيمته ، حتى خيمته فقد انفصل داخلها بحجرته الخاصة التي فُصلت بسياج من القماش السميك عن باقي الخيمة فكانت تلك الحجرة الخاصة تحتوي على تراث الآباء والأجداد من الوثائق سواء ما دُوِّن على الجلد أو على ورق، ووضع عليها الزمن بصماته ، فاصفر وتغير لونها.

واستند الرجل على حافة فراشه البسيط الذي أخذ حيزاً ضيقاً من الغرفة لا يتسع سوى لشخص أو اثنين على الأكثر. وذهب بخياله حيث الماضي القريب فكثيراً ما اصطحب جده خارج الواحة للتجارة مع بعض الواحات القريبة أو إلى المدينة البعيدة.

نعم فمنذ سنوات كانت هناك بعض الرحلات التجارية البسيطة بين الواحات المختلفة وإلى المدينة البعيدة، ولكن مع مرور الوقت وهجرة ما بقي من القبائل المجاورة أثر تلك الحروب التي نشبت بينهم لم تدم رحلات التجارة كما كانت سابقاً إلى أن اندثرت تماماً واكتفى أهل الواحة بالزراعة والرعي وبعض الحرف اليدوية.

ولكن في خلال رحلاته السابقة تعلَّم الكثير عن العالم خارج الواحة الصغيرة حتى أن جده أثناء حكمه قد نقل بعض الأمور وإن كان أهم تلك الأمور هو القراءة والكتابة فكان التعليم في أبسط صوره ، وقد حافظ أبيه على ذلك الأمر أيضاً ، وهاهو يستكمل مسيرة أجداده البسيطة، ولكن لم يُعنَ ذلك الأمر لكثير من أهل الواحة إلا القليل جداً مما أردوا تعلم القراءة والكتابة. واكتفى الآخرون بمجلس كبير الواحة الذي يقصُّ فيه أخبار السابقين من

أهلهم، وبعض أخبار العالم حولهم عند ذهابه إلى المدينة على فترات متباعدة من الوقت إلي أن اكتفى هو الآخر، فلم يقدر على مشقة الطريق مع تقدمه في العمر حيث صعوبة السفر والتنقل ، فمازالت وسائل تنقلهم هي الوسائل القديمة من الجمال أو الخيول. واكتفوا جميعاً بمجالس السمر تلك وحياتهم البسيطة التي لم يلتفت إليها أحد .

تلك البقعة من الأرض يقطنها أناس قد انفصل بعضهم عن العالم. فترى هل كانت تلك نعمة لهم أم لا؟

واقترب الرجل من مهد الصغير الذي وضعه بجوار فراشه والثوب الملقى به وأخذ يتفحصه بدقة كان يعلم منذ أن وجد الطفل بجوار النبع أن هناك شيئاً ما، وأن ذلك الطفل قد أُلقِي به من السماء من طائرة ما. وتم وضعة في ذلك المهد بعناية فائقة وتم وثاقة ببراشوت تلك المظلة المعدة للهبوط التي يستعملها قائدوالطائرات أو المسافرون عند وجود خطر ما .

أم هل كان هذا الطفل على رحلة من تلك الرحلات فحدث خلل وأُلقِي به؟ ولكن إذا كان هناك خلل ما فأين باقي ركاب الطائرة؟ ولماذا لم نشاهد في السماء أى أثر لذلك الأمر، أو شيئاً من هذا القبيل؟

ونظر طويلاً لتلك المظلة وقال:

ـ تلك الأشياء الحديثة التي تستعمل في الأماكن الحضارية بعيداً عن هنا. ولكن من الذي ألقى هذا الطفل؟ ولماذا؟ فمن فعل ذلك كان

على علم جيد بمواقع الصحراء حيث اختار مكاناً بعيداً عن موطنه ، وفي الوقت نفسه يعيش به بشر لا يعلمون شيئاً عن خارج عالمهم. فهل كان يقصد ذلك؟ ولماذا أيضاً؟ وهل كان على علم أن هناك من سيعتنى بالصغير إلى حين؟

وأخذ يسحب الباراشوت تلك مظلة الهبوط الغريبة شيئاً فشيئاً ليعيد طيَّها من جديد. وجحظت عيناه من الدهشة وكأنما شُلّت يده من هول الصدمة التي وجدها بين يديه. تلك اللفافة المطوية بإحكام داخل زجاجة صغيرة من البلاستك ومغلقة بعناية فائقة. سحبها بسرعه وترك المظلة تهوى من بين يديه لتستقر بجوار قدميه على الأرض ومن قبل ورقة صغيرة تم وثاقها بقدم الصغير. وقال محدثاً نفسه :

ـ ما هذه الرسائل الغريبة؟

وحاول بكل عناية جاهداً فتح تلك الزجاجة وأخرج اللفافة بحرص شديد خشية أن تتمزق بين يديه ، ثم فتحها ببطيء وحاول أن يقرأ ما بها، ولم يتمالك نفسه من الصدمة، ودبَّت الرعشة بين يديه، فأخذت تتمايل كادت أن تسقط معها لفافة الورق ، ثم فتح فاه عن آخره وجحظت عيناه من الرعب.

الفصل الثالث

اشتعل الرأس شيباً وتقدم العمر فاقتصر عمله على قيادة أبناء الواحة ، فلم يعد يخرج للتجارة كما كان سابقاً ، وأصبحت أيامه متشابهة بعد رحيل زوجته الحبيبة، وتوقفت روحه عن رؤية الأشياء الجميلة، أو قد تكون عيناه اعتادت رؤية الأشياء دون الإحساس بها – فرؤيه الأشياء الجميلة تبهج العين ، والإحساس بها يبهج الروح ، وشتان بين ذاك وذاك ؛ فالعين سريعاً ما تنسى الأشياء أما الروح فتبقى دائماً عالقة وهائمة مع الذكريات إلى الأبد حتى وإن كانت تلك الذكرى هي رائحة عطر لمن أحببناهم نستطيع أن نستنشق شذا عطره ونشعر به في أرجاء الروح حين نستدعى تلك الذكرى.

لكل منا حلم سواء كان هذا الحلم آمالاً كبرى ، أو كانت أمالاً بسيطة حتى وإن كانت رغبة في الزواج وبناء حياة أسرية لابد له من العمل عليها بصدق حتى يصل لما يريد. فقد كان حلم طفولته السفر والترحال واكتساب عادات ولغات جديدة، وقد كان له ذلك، وتحقق حلمه في صباه حتى تقدم بالعمر وبلغ مبلغ الرجال فكانت

حياة السكون والعزلة عن البشر هي غايته ليستقر بين أهل الواحة يعلمهم مما اكتسب من ترحاله ، ويحكم بينهم بالعدل والرفق، وينقل علمه وأسرار عائلته إلى ابنته الوحيدة ؛ ليعدها لذلك اليوم التي ستأخذ فيه موقعه على كرسي الحكم.

وتذكر أبناء عمومته فقد كان لهم شأن أخر في تحقيق أحلامهم، ورحلوا منذ سنوات بعيدة عن الواحة عن الصحراء فاستطاع بعضهم تحقيق حلمه ، ووصولهم إلى مكانة علمية مرموقة. هناك من يسعى لتحقيق غايته من أجل إسعاد نفسه، أو من أجل إسعاد البشر، ولكن في المقابل هناك من كان حلمه وغايته أن يتغذى على سكينة البشر ويمتص أحلامهم وسعادتهم ففي شقاء غيره تكمن سعادته ، وقد يجد سواعد الشياطين تساعده وتعينه على ذلك.

***

قد يكون حقاً قد اشتعل الراس شيباً ولكن إذا تولدت الرغبة بصدق وقوة جعلت من الشيخ شاباً فتياً ، وهكذا امتطى الشيخ جواده الأدهم. كان العرب يطلقون على الفرس الشديد السواد الأدهم، وكانت الخيل السوداء الأصيلة أحب الخيول إلى العرب فبدا فارساً كأمهر الفرسان، كانت خيوط الفجر الرمادية تتسلل في هدوء تسحب ظلمة الليل شيئاً فشيئاً ، ولم يكن نور الصباح قد أشرق بعدُ ، فاختفى الأدهم وسط ليل الصحراء مخلفاً وراءه سحابة من الرمال اختفى أمامها وفارسه في قلب الصحراء الشاسعة.

وإن كانت حياة الصحراء. فهي الحياة الأكمل لبعض سكانها.

وبرغم قسوة الحياة بها فهي أيضاً عشق لغير سكانها. ففي خلال رحلته كانت هناك بعض الخيام القليلة التي ضربت بجوار بعض التلال البعيدةالتي أضاءت حولها النيران لتبدِّد ظلام الصحراء ووحشة المكان فابتسم وقال:

لكل إنسان عشق الخاص فبعض البشر تحب التخييم، وتعشق رحالات السفاري ففي الصحراء سحر غامض يأسر النفوس.

كانت النهار قد اقترب على الانتصاف ، فوقف الفارس والفرس للاستراحة بعض الوقت فتناول طعامه وشرابه ، وأطعم الفرس ثم أكمل مسيره الذي اقترب من ثلاث أيام إلى أن وصل الفارس خارج الصحراء إلى ذلك الإسطبل القريب من الطريق السريع فآوى فرسه في هذا المكان كما اعتاد دائماً، وكما يفعل أهل الصحراء ، ودفع لصاحب المكان حتى حين عودته مرة أخرى وأشار لإحدىالسيارات الذاهبة لمحطة القطارات.

ولكن إلى أين يذهب كبير الواحة؟ ولماذا ترك واحته في تلك الساعة المبكرة؟

واستقل القطار فأخذت عيناه تجول في المكان سريعاً وقال في نفسه : كم تغيرت الأشياء منذ آخر رحلة استقل فيها القطار!

كان ذلك منذ سنوات قليلة حتى أصبح السفر شديد المشقة عليه. ولكن ما وجده في تلك الرسالة جعله يعجل الأمر فلم يبق الكثير من الوقت لديه. وأخذ يسأل هل يمكن أن يكون هناك هذا النوع من البشر؟ ولماذا؟ ولم يخرجه من شروده وأفكاره إلا صوت

عجلات القطار قد صكت في قضبانها ؛ فارتفع ضجيجها معلناً توقف القطار ووصول المسافرين لنهاية الرحلة.

ولملم الرجل عباءته وتنفس الصعداء وهبَّ مسرعاً يشق صفوف البشر على رصيف المحطة في عزم وقوة ، وقد أمسك بيده حقيبة صغيرة صنعت من نسيج الخيام وضع بها بعض الأشياء الخاصة وشيئاً آخر هو أكثر أهمية وهو ما كان يطمئن على وجوده بداخل الحقيبة. وأخذ يتفقد حقيبته بين حين وآخر عسى أن يتأكد أن ذلك الشيء مازال بأمان مستقراً بين يديه حتى يصل إلى الجهة التي يسرع ليذهب إليها.

وخرج الرجل من محطة القطارات إلى قارعة الطريق ، لم يتغير المكان كثيراً عما رأه آخر مرة كان في زيارة تلك المدينة إلى أن الأمر الجديد هو زيادة أعداد البشر، وقال في نفسه:

ـ يبدو أن الناس تفضِّل الحياة داخل المدن، ولا يحب أحد حياة الصحراء مثلنا.

واستوقفته السيارات المسرعة فلم يستطع عبور الطريق كما ارتفع أصوات أبواق السيارات فكان الضجيج أكثر مما يحتمله رجل مثله يسكن الصحراء حيث الطبيعة البكر والهدوء والسكينة وأقوى صوت يمكن سمعه في واحته هو صوت تغريد البلابل، أو صهيل الخيول، أو قد تكون نقنقة دجاجة هاربة من القن.

أما الباعة الجائلون فقد ضاق بهم المكان وازدحم فوق زحامه حتى أصبح لا يحتمل موضع قدم أخرى، وحاول جاهداً شق صفوف

الزحام الخانق، وابتعد قليلاً في إحدى زوايا الشوارع القريبة كي يلتقط أنفاسه المنهكة ثم تذكَّر أن لا وقت لديه لإضاعته، وإن كان ذلك الوقت هو لحظات قليلة يلتقط فيها أنفاسه. فدسَّ يده سريعاً داخل إحدى جيوب عباءته وأخرج ورقة صغيرة مطويه بعناية ثم أشار بعجالة لإحدىسيارات الأجرة.

قرأ الورقة مرة أخرى ثم أعادها إلى مكانها السابق داخل ملابسه وأوصى السائق بالعنوان المكتوب وانطلق به إلى ذلك المكان الذي يلهث إليه منذ ليلة أمس.

***

وقفت السيارة أمام أحد الفيلات المحاطة بسياج من أزهار الياسمين والقرنفل الأحمر فانتشر عبيرها يملأ الأجواء، وينشر البهجة في النفوس حتى أن سائق السيارة استنشق هذا العبق مغمض العينين ، ثم ابتسم وكأنه حصل على هدية صغيرة فوق أجره ورحل سعيداً قبل أن يترك الرجل أمام هذا السحر والجمال، ولكن الشيخ نظر بتعجب إلى السائق قائلاً :

ـ ماذا لو أتى لدينا في الواحة ورأى الجمال ماذا كان سيفعل؟ وإذا كان الناس يحبون هذا الجمال وبهجة الزهور لماذا يقتلونه في كل يوم بهذه المباني الشاهقة الصماء دون لمسة من جمال الطبيعة الحي.

وهزَّ كتفيه في أسى ، ودلف إلى حديقة الفيلا الجميلة ؛ ليستقبله

شاب في بداية العقد الرابع من العمر. فارع الطول ممشوق القامة أسمر اللون أنيق الملبس تدل فخامة المكان الذي يسكنه ومظهره الشديد الأناقة على أنه ذو شأن كبير في هذا المدينة.

واستقبل الشيخ استقبالاً مميزاً مفعماً بالدفء والعاطفة الجياشة استقبال يليق بكبير الواحة وزعيمها، وكيف لا وهو يعرف قدر هذا الشيخ جيداً كما يعرف أهل الواحة وكيف لا؟ فهذا الشاب لم يكن إلا من أبناء أعمام كبير الواحة، حلمه في السفر والتعليم حتى وصل إلى تلك المكانة العلمية الكبيرة ، فهو رغم عمره الصغير استطاع أن يضع قدمه بقوة في مجال البحث العلمي كما نال درجة الدكتوراة ، وأصبح دكتوراً بالجامعة وعضو منظمة الصحة العالمية، وصندوق التعاون الأفريقي فإجادته للغة الفرنسية في مقتبل حياته المهنية أهَّلته أن يعمل بالقارة السوداء بضع سنين.

كان كثير الأنشطة العلمية، وعلى أفق واسع بالأوساط العلمية المتنوعة فكان أيضاً عضواً مهماً في [أطباء بلا حدود] وتسربت السنون من يديه ونسى أن يتزوج إلى الآن، ولم يمنعه ذلك من صله الأهل والأقارب داخل الواحة هناك في تلك الصحراء الشاسعة البعيدة عن حضارة الإنسان فكان يجد هناك السكينة والسلام لروحه المتعبة من ضجيج وصحب المدينة الخانق فيغسلها هناك وسط هدوء الليل وتغريد البلابل مع إشراقة يوم جديد فيستطيع بعد ذلك أن يواصل عمله وسط ضجيج وزحام المدينة من جديد. وإن كان بعض شباب الواحة قد رحل دون عوده ودون حنين إلى

أهله، أو إلى جذوره، وهذا النوع من البشر يستطيع أن يعيش بلا جذور، ولكن لن يعيش إلا متسلقاً على أكتاف الأخرين ليبقى بلا جذور بلا أرض يستمد قوته من طميها. هذا النوع من البشر قد تتسع أمامه الحياة، ولكن يبقى دائماً ليناً ضعيف القيمة ومهما كبر، وعلا، وارتفع، لن يبقى إلا خيالاً لآخر قد تسلق عليه من قبل ليصل في النهاية إلى لا شيء.

وابتسم كبير الواحة لاستقبال ابن عمه الدكتور منصور استقبالاً مفعماً بالدفء العائلي وقال:

ـ سامحني يا ابن العم على حضوري فجأة فأنت تعلم أننا بالواحة ليس لدينا أى وسائل اتصال حديثة كي أخبرك قبل حضوري حتى لا يتعطل عملك، وكان لابد أن أراك سريعاً فالأمر لا يحتمل التأجيل.

اتكأ الدكتور منصور بساعده على حافة المنضدة ونظر إلى ابن عمه قائلاً:

ـ يبدو أن هناك أمراً جللاً ؟ هدئ من روعك يا عماه فأنت على سفر منذ ليلة أمس وها هو اليوم قد قارب على الغروب فلترتح قليلاً من عناء السفر وتتناول الطعام ثم هناك كثير من الوقت نستطيع التحدث فيما تريد وها أنا لن أبرح المنزل وسأبقى معك طوال الليل وما بقي أيضاً من هذا اليوم.

أثلج هذا القول قلب الرجل المنهك من عناء الطريق، وقال:

ـ نعم هو ذاك، ولكني لن أغفو الليلة قبل أن أنهي ما جئت من أجله، وإن ذهب الليل كله دون أن نستطيع النوم.

ضحك الدكتور منصور وقال مداعباً كبير الواحة وسيدها:

ـ نعم لك ما تريد، ولن أبرح الدار حتى تجد ما تريد من إجابات، وإن دامت معكَ عدة أيام وليس ليلة قط. وانطلق الرجلان يصعدان درجات السلم المؤدي إلى داخل الفيلا.

وأسدل الليل ستائره. كان كبير الواحة قد ارتاح قليلاً من عناء السفر ، واغتسل كما تناول طعامه فمنذ ليلة أمس لم ينتبه إلى أنه لم يتناول طعام إلا قطرات من المياه يتناولها حين يجف حلقة في هذه المدينة المزدحمة الخانقة. ثم انفرد بابن عمه في حجرة مكتبه وفى أحد أركان الحجرة جلس على أريكة شديد الجمال ، بجوارها منضدة متوسط الحجم وضعت الخادمة عليها قدحين من القهوة، ثم أمرها سيدها بغلق باب الحجرة بإحكام وعدم إزعاجهم. تناول الدكتور منصور قدح القهوة ثم قال:

ـ إذاً ما الأمر سيدي ؟؟

فدسَّ كبير الواحة يده في حقيبته ، وأخرج بحرص شديد ورقتين مطويتين بعناية فائقة حرص كل الحرص على الاعتناء بهما طوال رحلة السفر خشية أن يفقد إحداهما.

ووضعها برفق فوق الطاولة ثم قال:

ـ هذا هو السر الذي من أجله جئتك مهرولاً، هذا السر دام

عشرين عاماً وإن كنت تعلم بعضه.

فقال الدكتور منصور :

ـ ليس لدينا يا عم بالواحة أسرار سوى ...

وسكت قليلاً كأنه يحاول أن يتذكر شيئاً منسياً ، وقال :

ـ تقصد سر الفتى زين؟

فقال الشيخ :

ـ نعم هو! أتذكر يا منصور قصة الصغير الذي هبط علينا من السماء.

وسكت الرجل ، وتناول قدح القهوة ، فارتشف قليلاً منه ، وأعاده إلى مكانه ثم أكمل قصته مرة أخرى وقال:

ـ كنت قد أخذت الصغير إلى بيتي ؛ فعاش معنا إلى أن حان وقت دخوله المدرسة بالمدينة كجميع أقرانه بالواحة ، أو من يرغب أهله بذلك فأرسله كما تعلم إلى إحدى المدارس الداخلية فإذا حانت الإجازة كنت أذهب وآتي به إلى هنا مرة أخرى ولكني لن أنسى ذلك اليوم أبداً منذ خمسة عشر عاماً وهو اليوم الأول الذي اصطحبت فيه الصغير للذهاب إلى المدينة

ذلك اليوم الذي جعلني أفكر وأبحث عمن يكون ذلك الصغير وذهب الرجل بالذاكرة إلى ذاك اليوم البعيد .

***

ـ أسرع يا زين سيدي ينتظرك بالخارج ، وأيضاً كل فتيان الواحة وأباؤهم بالخارج فهذا اليوم هو أهم أيامك يا بني. أسرع يا زين.

كانت الخادمة تحثُّ الصغير على ارتداء ملابسه سريعاً ؛ فقد تأخر القوم بسبب الصغير، فبعض أطفال الواحة قد حان بلوغهم سن التحاقهم بالمدرسة .

في هذا اليوم من كل عام يمتطى الصغار الخيول خلف آبائهم لحين عبورهم الصحراء ، ثم الالتحاق بالقطار المغادر إلى المدينة لإنهاء إجراءات السنة الدراسية الجديدة .

لكن التحاق أبناء الواحة بالفصول الدراسة كان أمراً عسيراً سواء على الأطفال أو على الآباء ؛ فالأبناء لا تلتحق بمدارس عادية لكنهم يلتحقون بمدارس داخلية يمكث بها الصغير ، ولا يرجع إلى أهله إلا ثلاثة أيام من كل شهر .

كان ذلك إذا كان المولود صبياً ، أما الأنثى فكان يُكتفَى بتعليمها القراءة والكتابة داخل الواحة. فمن عاداتهم المتوارثة التي يرضى عنهاالجميع ، ولم يخالفها أحد من قبل : ألا تمسي الأنثي خارج بيتها أبداً ، حتى وإن كان ذلك عند أقاربها .

ويستمر الأمر إلى أن تنتهي السنة الدراسة فيعود الأطفال مرة أخرى إلى الواحة وذلك نظراً لمشقة الطريق وصعوبته، فالذهاب والعودة يومياً في تلك البقعة النائية من العالم لهو أمر مستحيل.

أما في خلال الفترة الدراسة فكان أهل الواحة يتبادلون زيارة

الأطفال فيما بينهم حتى لا يشعر الصغار بالرهبة والخوف.

وانتهى زين من ارتداء ملابسه وخرج فكان من أجمل الأطفال هذا اليوم. وانطلق الركب بتلاميذ علم المستقبل قبل أن تنجلي ظلمة الليل إشفاقاً على الصغار من شمس الصحراء. ترى ماذا سيكون عليه هؤلاء الصغار في الأيام القادمة؟

وامتطى كبير الواحة الفرس الأدهم، وأخذ زيناً بين ساعديه فضمه بشدة حتى أن تلك الضَّمَّة أوجعت الصغير الذي التفت ونظر له في دهشة وتعجب. ترى هل كان يخشى الشيخ على صغيره مشقة الطريق أم كان يخشى شيئاً آخر ؟

كان الرجل يشفق على الأطفال ، فهي المرة الأولى التي يقطعون فيها الصحراء حيث كان أقصى مكان يمكنهم الذهاب إليه هو العين « بئر للمياه "، أو النبع على مرمى البصر من خيامهم.

وهاهو النهار الثالث قد أضحى سريعاً ، واقترب الركب من نهاية الصحراء وأصبحت السيارات على مرمى البصر.

وكعادة أهل الصحراء جلس الجميع على استراحة بسيطة الشأن بجوار إحدى إسطبلات الخيل الذي أوصى لصاحبه رعاية الخيول لحين عودتهم من المدينة. وبين همسات الآباء وضحكات الأطفال مضى بعض الوقت حتى ارتاح الجميع من عناء الطريق.

ثم استقل الرجل ومن معه إحدى الحافلات الذاهبة إلى محطة القطارات ليذهبوا إلى المدينة.

وهنا كانت بداية الأحداث الغريبة التي باتت تحدث للصغير حتى أن الركب أندهش من ذلك الأمر كما أصاب الأطفال التعجب من زين الذي أمسك تلابيب ملابسي بشدة فور تحرك الحافلة على الطريق، واخذ يغمض عينيه بين حين وآخر خشية أن ينظر من النافذة، وارتفع صخب الصغار، وضحكهم ساخرين من الصغير الخائف من سرعة الطريق. وكثيراً ما لقى زين السخرية من رفاقه بالواحة بسبب لونه المختلف فكان يطلقون عليه النمر، ولو علموا هؤلاء الصغار أن كل البشر المعاصرين لديهم سلف مشترك بسبب معيشتهم منذ حوالي ٢٠٠،٠٠٠ سنة في أفريقيا ثم تطورت البشرة ، واتبعت مسارات وراثية مختلفة في باقي القارات فمثلا في جنوب أفريقيا أكبر عدد السكان ذوي الأصول الأوروبية في أفريقيا، وأكبر تجمع سكاني هندي خارج آسيا، وأكبر مجتمع ملّون (ذوي البشرة السوداء والبيضاء والصفراء) في أفريقيا، واستمر ذلك التنوع حتى أن الإنسان الأبيض قد طور من نفسه سريعاً واستغل كل الموارد المتاحة حوله ثم طغى على أصحاب البشرة السوداء فاتخذهم عبيداً ، وكان الأوربيون تجارة العبيد يأخذون الأفارقة ويرسلونهم قسرا للعالم الجديد ليفلحوا الأراضي الأمريكية. واستمرت تلك التجارة المحرمة سنوات طويله نتيجة الجهل والفقر في القارة السوداء، ولكن هناك من يعلم جيداً قيمة هذه القارة الغارقة في الجهل كما يعلم كيف يستغل ذلك لصالحه الخاص! حتى أعلنت العبودية غير شرعية في عام ١٩٤٨ بموجب الإنسان وكانت موريتانيا آخر بلد ألغى العبودية، بمرسوم رئاسي عام ١١٩٨.

ولكن يبقى شيء من الرق بداخل كل إنسان فهناك

مازالت أنواع كثيرة من الرق العبودية الجبرية يتم فيها إجبار الفرد على العمل والإنتاج تحت تهديد العنف وضد إرادته وإخضاعه تحت السيطرة الكاملة لشخص آخر مثل بعض الفئات التي تدير شبكات لممارسه السرقة أو البغاء أو إجبار بناتهم على الخدمة بالبيوت، أو حتى الزواج القسري، وهو الزواج بدون موافقة أحد الزوجين سواء الولد أو البنت ونرى صوراً كثيرة من هذا الزواج في بعض المناطق النائية.

وأشفقت عليه وضممته بشدة ، وربت على ظهره عسى أن يطمئن ويهدأ قليلاً. واستمر مغمض العينين إلى أن وقفت الحافلة بالقرب من محطة القطارات. وبات الأمر أكثر تعقيداً وغرابة عن ذي قبل.

فحين وصل القطار إلى الرصيف، واستعد المسافرون للصعود عليه اشتد الزحام كما هي عادة المدن فبكى الصغير من الخوف من مما رآه من تكدس البشر وتصارعهم للوصول إلى باب القطار أما الأطفال الآخرون فلم يستطع أحدهم الاستهزاء بزين هذه المرة، ولكن التزم جمعيهم الصمت وملأت عيونهم الدهشة، والخوف، ولكن لم يبكِ أحدهم كما فعل زين. واستوى الركاب كلٌّ على مقعده، وأطلقَ القطار صفيره العالي معلناً غلق الأبواب وبدأ التحرك. وهنا صرخ زين صرخة انتبه لها المسافرون حولنا، وجحظت عين الشيخ من الهلع ولم يتمالك أن أخفى الصغير بين ساعديه وطوَّقه بشدة. فهل صرخ الصغير من خوفه من المدينة كما يظن الجميع؟ أم

تُرى هناك شيء آخر؟

الفصل الرابع

أرخى الليل ستائره الثقيلة في هذه الساعة المتأخرة فضرب بظلمته ، لكن حتى تلك الظلمة لم تستطع أن يبدل هذا الجمال الأخاذ في هذه الواحة النائية ، فلايزال القمر ينشر ضياؤه كأنه يعانق الليل ، وتشاهد النجوم ذلك الهيام بينهما، وإن كان النهار للجد والعمل ؛ ففي سكون الليل بهجة الأنفس المنهكة من عناء ذلك اليوم.

وتبقى بهجة الليل بهجة لمحاكاة الشجر، وهمسات الريح حتى خرير الماء تسمعه ليلاً كأنه لحن موسيقى رائع، ومع هبوب نسمات الليل تحمل معها صوت ذلك الكروان يشاركك تلك الأمسية الناعمة ضارباً عنان الفضاء فهو الآخر من عشاق الليل والقمر وصورة المساء في هذه الواحة.

مازالت تلك البقعة بعيدة عن الحضارة ، وبعيدة أيضاً عن عبث الإنسان فاتنة حتى في جنح الظلام.

انتاب الزوجة الحنون القلق على زوجها الذي لم يغمض له جفن منذ يومين، ، فخرجت تتلمس موضعه بجوار خيمته في هذا الوقت المتأخر وقالت:

ـ أبا هند زوجي الحبيب ، لماذا أراكَ هكذا؟ فمنذ عودتكَ من المدينة أراكَ شارداً على غير عادتكَ ، كذلك الصغير به شيء عجيب! فأنت مازالتَ على صمتكَ منذ عودتكَ ، والطفل لا ينقطع بكاؤه إلا حين يضنيه التعب فينام. ماذا حدث هناك؟

نظر الرجل إلى زوجته وقد ملأت الحيرة، والحزن عينيه فقال:

ـ في كل مرة أعبر فيها الصحراء الواسعة وانطلق بخيلي في ذاك الأفق البعيد أشعر فيها أن الإنسان صغير جداً داخل هذا الكون الشاسع الذي قد لا يسع هذا المخلوق الصغير. حين أعبر تلك الصحراء تلك البقاع الصفراء القاحلة أجدها أكثر بقاع الدنيا حكمة فهنا يتعلم الإنسان الصبر، والحرص، والتأمل، والصمت ، هنا تكمن قوة الكون وقوة الحياة، وهنا تكمن عناصره وثرواته .هنا يرى الإنسان الرمال الشاسعة، والأفق البعيد ، ومن يريد عبور الصحراء عليه الصبر، وليتذكر قوة الجبال ، وليكن في شموخها وقوتها ،ولكن عليه أن يتعلم الحرص، ولينظر إلى خطواته فقد تكون الخطوة المقبلة هي الخطوة الأكثر خطراً رغم اقترابه من نهاية الطريق فقد تكون أسفل قدميه رمال ناعمة قد يغوص فيها ، ولا يخرج إلى الأبد فليحترس لخطواته . كما عليه أن يصمت، وينصت كثيراً لأصوات الرياح المحملة بلهيب الشمس الحارقة،

أو نسمات الهواء الباردة فمنها قد تغير اتجاهك، وتبدل خطواتك فهي دليلك أنك على مقربة من الجمال جمال الطبيعة البكر بظلال شجر النخيل والزيتون بالقرب من واحة أو نبع مياه فقط عليك أن تتعلم الصمت، وتنظر إلى أعلى حيث السماء لتهدي بالنجم إن ضللت الطريق فقط عليك أن تتعلم لغة الكون وتصمت قليلاً عن لغة الإنسان. ومن يعبر الصحراء يتعلم الكثير. ومازلت أتعلم الكثير وأرى الكثير يا أم هند .

وقصَّ الرجل لزوجته ما كان من أمر الصبي من خوف وهلع حتى كاد يُغشى عليه عدة مرات في الطريق وقال:

ـ حتى ظننت يا زوجتي أن الصغير يخشى الزحام الذي لم يعتد أمره هنا في الواحة. فرجوتُ أهلي أن يسبقونا ، أما أنا والصغير فقد اتخذت له وسيلة مواصلات خاصة بعيداً عن الزحام حتى يهدأ قليلاً. ولكن الأمر لم يتغير، ولم ينقطع الصغير عن البكاء تارة، وعن الصراخ تارة أخرى حتى ينهكه التعب فيغمض عينيه، ويخفي رأسه بين ساعدي كمن يريد أن يخفى نفسه بعيداً عن شيء ... شى ما ...!

وهنا لم أستطع الانتظار ، واستعملت معه علم الأجداد من التخاطر وهي عملية اتصال شخص بآخر لتوجيه رسالة له ، إما بالسلب أو بالإيجاب .. التخاطرهو انتقال أفكار، وصور عقلية بين الكائنات الحية من غير الاستعانة بالحواس الخمس ، أو باختصار نقل الأفكار من عقل إلى آخر بدون وسيط مادي. وليس له علاقة

بالسحر كما تعلمين، وإن كنا نعلم بعضه السحر أيضاً، ولكن لا حاجه لنا به الآن سوى أنه من علم الأجداد، ولا نعلم هل في المستقبل سنحتاج إليه أم لا؟

ثم وضعت يدي على رأس الصغير وأغمضت عيني لنرى ما يجول بعقل هذا الصغير وماذا يروعه هكذا؟ ولهول ما رأيت يا أم هند ...!

ثم سكت الرجل وأنزل رأسه إلى أسفل في أسى وحزن حتى أطبق السكون حول المكان. فقالت المرأة وقد انتابها الفزع: ثم ماذا؟ لقد أدخلت الريبة إلى نفسي. ماذا رأيت؟

نيران كثيفة وكأنه انفجار شيء ضخم مثل انفجار البراكين ثم هياج وصراخ من البشر كلٌّ يجرى بعيداً عن النيران وسط ضجيج السيارات التي أخذ بعضها ينفجر من لهيب النيران المرتفعة. ومن خلال النيران يخرج رجل يحمل بين يديه طفل صغير انفطر قلبه من الصراخ، والبكاء والرجل قابض عليه بكلتا يده محاولاً الفرار من ذلك الدمار والنيران.

ولكن عند محاولة الرجل الفرار من النيران كان خلفه في المكان يد أخرى تحاول أن تجذبه لداخل موقع الانفجار مرة أخرى ولكن استطاع الرجل أن يتخلص من صاحب اليد ومازال ممسكاً بشده بالطفل الصغير ، ثم حاول عبور المكان مسرعاً متفادياً عدة انفجارات أخرى بالمكان.

كان بيد الرجل مجموعة أوراق قبض عليها بشدة حتى أنها

كورت بين يديه التي تحمل الصغير، ومازال يسرع زائغ العينين غير مكترث بأي شيء قد يحدث أمامه، أو خلفه سوى الهروب بالصغير متفادياً بعض الأشخاص في هذه المكان يحاولون إثناءه عن الطريق، أو الإمساك به أو نزع الصغير من بين يديه، لكنه يفر به مسرعاً من المكان برغم جراحه التي أخذت تقطر دماء كثيفة فانتثرت خلفه بشدة ، ولكن لم تمنعه من استمرار محاولة الفرارمن ذلك المكان. رغم أن الجميع يعلم بضرورة الهروب سريعاً والا فالكل هالك لا محالة في هذه الدمار.

هذا ولم أستطع أن أكمل مع الصغير جلسة التخاطر كاملة فقد أصبت بما أصيب به الصغير من الفزع ، ولكن أتعلمين من يكون الصغير. الذي حمله الرجل وسط هذا الدمار؟ إنه زين !!

ولذلك أخذ الطفل يبكي ويصرخ حين رأى الزحام بالمدينة وسمع ضجيج السيارات، لكنه طفل لم يستطع أن يشرح لماذا هو خائف؟

ففتحت الزوجة فمها من الدهشة، وجحظت عينها من الهول وقالت:

ـ كيف؟ لقد أتى إلينا صغيراً لا يتعدى عمره ثلاثة أو أربعة أعوام يزيد أو ينقص قليلاً. فهل يتذكر الإنسان في سنين عمره الأولى هذه الأحداث ؟

فقال الرجل:

- نعم . بعض الناس يمكنهم تذكر الأحداث الهامة من الطفولة المبكرة ، وبعد سبع سنوات يستطيع الأطفال تخزين ذكريات بالوقت والمكان على نحو متزايد يمكن استرجاعها في أى وقت.

ثم قال:

- ولكن من يكون الرجل الذي كان يحمل الصغير؟ وهل هو أبوه؟ وإذا كان كذلك فأين هو؟ ومن ألقى الصغير من السماء الينا؟ ولماذا؟ ومن صاحب اليد الذي حاولت جر الصغير إلى داخل النيران والمكان المنفجر؟ ومن هؤلاء الناس؟ وما هذا المكان الذي يضج بالبشر؟ ولماذا يتواجد طفل صغير في ذلك المكان؟ كثير من الأسئلة لم أكترث لها منذ عثرنا على الطفل بجوار عين الماء حتى أنى لم أنتبه لتلك القصاصة الورقية التي كانت معه بالمهد ولم أعيرها اهتماماً أيضاً. واستمر الأمر كما تعرفين. حين جاء الصغير وحاولت أن أتخاطر معه لم يأتِ ذلك بأثر مفيد، ولا أعلم هل كان بسبب تخدير الصغير الذي أثرَ عليه في ذلك الوقت؟

حين يهدأ الصغير قليلاً سأشرع في معرفة كل شيء ... كل شيء.

وصمت الرجل وكذلك زوجته ؛ فقد علما أن الأمر خطير ولم يعلما أن الأمر أكثر خطورة مما تصورا بكثير جداً. فما وراء الصغير لا يحتمله قلب إنسان الضمير بشر!

***

ومنذ ذلك اليوم يا دكتور منصور حاولتُ كثيراً لسنوات عديدة أن أجد إجابة لأي سؤال لاح بخلدي من قبل فلم أجد! كما حاولت مزاوله التخاطر كثيراً مع الفتى لمراحل عمرية متفرقة فقد تكون هناك مشاهد لذكريات أخرى عسى أن نعرف من يكون أو نساعده أن يعود إلى أهله ، فما رأيت لا الذكريات ذاتها تتكرر في كل مرة. فقط تلك الذكرى الصغيرة الجديدة في إحدى المرات وهي فرار رجل ما بالصغير إلى إحدى الأماكن النائية. رجل يجرى وسط أدغال، وبرك من الوحل زائغ البصر، وكأنما يخشى شيئاً ما. ثم جثا الرجل بالصغير بجوار إحدى الأشجار وأدخل إبرة في ساعده ... وبكاء الصغير ... لا اعلم أن هناك ذكريات أخرى مختزنة داخل عقله لم يتم التخاطر معها أم ذلك هي كل ذكرياته الأولى فقط؟

- ولكنى يا عمى ألا يمكن معرفة، واستدعاء ذكرياته قبل الحادث الذي تعرض له؟

- حاولت كثيراً فعل ذلك وكان الفتى يُجهَد ولا يستطيع التذكر، وكأن هذه الفترة من عمره قد تم محوها عن عقله تماماً !

وهز الرجل رأسه في حيرة وقال :

- أو ربما يمكننا فعل ذلك إذا حاولنا مرة أخرى؟ لا أدرى!

وكما تعلم أن بسب روعة من المدينة، والضجيج الذي يستعيد معها تلك الذكريات الرهيبة، اكتفى بالقدر المتوسط من التعليم وبقي في الواحة لم يخرج منها أبداً بعد ذلك. ولم أفرض عليه شيئاً فالإنسان هو من يصنع حياة بنفسه إما شقاءه وإما مجده. هو فقط

من يجب عليه الاختيار ... إلى أن توفيت أم هند كان الصبي في ذلك الوقت بلغ مبلغ الفتيان.

وكان لابد له من الاستقلال بحياة خاصة فلم يعد يجوز أن يبقى الصبي وهند وهما متقاربان بالعمر في خيمة واحدة بعد ذلك وخصوصاً أني معظم اليوم بالخارج إما في أعمالي وإما في السقيفة مع أهل الواحة. فشيدت له خيمة بجوار خيمتي، وكانت الخادمة تقوم بإعداد طعامه وتنظيف الخيمة كما طلبت منها. وظل الفتى في رعايتي يساعدني في أعمالي وآخر اليوم يذهب كلٌّ منا إلى بيته. واستمر الحال طوال هذه السنوات البعيدة.

وأحضر منصور دفتراً ورقياً وقلماً بجواره وقال:

ـ ياعمى هل تستطيع أن تقص مرة أخرى عدد مرات التخاطر مع زين وما هي المشاهد التي رأيتها كامله مرة أخرى وسأسجل هذه الملاحظات في دفتري الآن.

فتعجب كبير الواحة من ذلك الأمر، ولاحظ منصور ذلك فقال ياعمى:

ـ أعلم أنك سردتَ عليَّ من قبل ما كان بينكَ وبين زين، ولكن عندما نشاهد شيئاً ما، أو نسير في درب ما سنلاحظ في كل مرة شيئاً جديداً لم نلاحظه من قبل، لذلك أحب التدوين حتى عند عودتي إليه مرة أخرى دائماً أضيف ملاحظة جديدة، أو أقوم بتعديل شيء

وابتسم الرجل وقال:

ـ إذاً سنبدأ من جديد ، وأخذ يسرد الأحداث السابقة والدكتور منصور يدوِّن كل كلمة ينطقها زعيم الواحة، ثم سكت الرجل فجاءه وبرقت عيناه وقال في دهشة:

ـ انتظر يا دكتور أتعلم أن هناك شيئاً غريباً قد حدث ، ولم أنتبه إليه.

فقال منصور:

ـ ما هو ياعمي هل لاحظت شيئاً جديداً ؟

فقال:

ـ نعم عدة أشياء جديدة لم أنتبه إليها من قبلُ ، عرفت الآن ما كنت ترمي إليه من كتابة الأشياء.

حين صرخ الصغير وسط هذا الانفجار أن الطفل زين غامق البشرة ولكن الرجل الذي كان يهرب به أبيض مثلي ذو عيون زرقاء وشعر اصفر أراه بوضوح كما أراك ولم يكن هذا الرجل وحده بل كل ما كان بالمكان المحترق غرباء ليس بينهم من لونه كمثل لون هذا الصغير جميعهم من أصحاب البشرة البيضاء. أما الملاحظة الثانية ما الشيء الذي أدخله هذا الرجل بساعد الصغير وإن كنت أعتقد أنها مادة منومة قبل أن يلقى بالصغير.

فقال منصور :

ـ وإن كان ذلك حقاً فإن قذف الصغير على واحتنا كان حين وقع الانفجار.

وابتسم منصور كمن حصل على شيء جيد ، فقال:

ـ ألم أقل لكَ يا عمى.

ثم دوَّن كل ما دار من هذا الحديث وقال :

ـ ثم ماذا ؟؟ أهناك شيء أخر؟

فقال الرجل :

ـ سأحاول أن أتذكر إذا كان هناك جديد؟

فقال منصور

ـ وأنا سأبحث في هذا العام الذي جاء فيه " زين " على الانترنت من حوادث الانفجارات حول العالم وسنرى نتيجة هذا البحث.

واستطرد قائلاً:

ـ والآن ياعمى لنر أمر الورقتين !

فقال الشيخ:

ـ نعم يا بني .

وجذب الورقة الأولى الموضوعة أمامه على المنضدة في رفق وناولها لمنصور فنظر بها وأمعن النظر ، وساد الصمت على المكان بعض الوقت ، ثم قال الشيخ:

ـ هذه الورقة كانت موثوقة بقدم الصغير في مهده حين وجدته بجوار النبع ، وكما تري بعض الكلمات التي لا أجد لها تفسيراً ..

فقال الدكتور منصور

ـ نعم فكأنها شفرة أو رسالة ولكن لمن؟

ثم قرأ الرسالة التي تقول« ابحث عن الختم « وهنا ساد المكان صمت طويل ، كان كلٌ منهما يفكر بطريقة مختلفة في الأمر، وما السر في تلك الرسالة؟ وماهوا الختم؟

ثم خرج الشيخ من صمته فقال:

ـ منذ سنوات أحاول أن أفهم هذه الرسالة حتى عجزت عن ذلك فطويتها مع السنين، ولم أفكر بالأمر مرة أخرى. حتى جاء ذلك اليوم الغريب، وانتاب الفتى عديد من الأحداث الغريبة التي بدأت في صورة أحلام مفزعة.

وهنا كان لا مفر من إعادة تجربة التخاطر معه مرة أخرى، فمنذ عدة سنوات لم أقوَ على إعادة تلك التجربة معه حيث كنتُ أشفق عليه من تلك الذكرى المؤلمة. وعندما قمتُ بذلك شاهدتُ تلك الذكريات مرة أخرى، ولكن هذه المرة شاهدتُ طائرة تنتظر على أرض الأدغال، وهذا الرجل أيضاً الذي يحمل الصغير، ويهرول سريعاً نحو الطائرة كما هو لم تتبدل صورته. هنا أيقنت أن تلك الأحداث التي مرت بالصغير كانت في يوم واحد فهيئة الرجل وملابسه لم تتبدل هي كما هي، وآثار التلوث بادية عليه، وكما هي آثار رماد الحريق، واضحة بشده وتلطخ الرداء الأبيض الذي يرتديه ونظرات الهلع وصراخ الطفل لم تتغير.

فكنت أهدِّأ من روعه، وكثيراً ما كنت أذهب للنوم في خيمته، واترك هند مع الخادمة، واستمر الأمر عدة مرات إلى أن جاء زين في

أحد الأيام مستغيثاً يبكي كبكاء الأطفال ، وتغير الأمر وأصبح أشد وطأة ، وتحولت الأحلام إلى كوابيس تهزه وتنهره، وتحولت حياة الفتى إلى جحيم، وفى هذا اليوم كانت بيننا أقوى عمليات التخاطر ولهول ما رأيت في ذلك اليوم يابني حتى أني قطعت بعجالة الجلسة ولم أكملها فقد كان هناك شى رهيب.

هذا الشيء هو أنه حاول أن يسيطر على ذهني. فهربت مسرعاً قبل أن يتمكن من ذلك الأمر ذلك الشيء الرهيب حاول أن يسيطر على ما أقوم به فقد كان يعلم أنى اتصل بالفتى الذي حاول أن يصل إليه من خلال عقلي فأنهيت الجلسة حتى أقطع الاتصال بيننا وقبل أن يتمكن من ذلك .

أما الفتى ففقد وعيه من الصدمة. وجحظت عينا الرجل رعباً عندما تذكر هذا اليوم ثم صرخ قائلاً:

- وحش... وحش ... ابتعد !

وأخذ يلوِّح بساعديه في الهواء وكأنه يطارد شيئاً أمامه، شيئاً لا يراه أحد آخر. فمن يكون هذا الوحش الذي هابه رجلٍ لا يهاب عواء الصحراء في ليل حالك الظلمة؟ وهل ما رآه حقاً؟ هل هو وحش من الوحوش؟ أم ماذا؟

الفصل الخامس

كان الوقت يناهز السادسة صباحاً ، وكانت السماء صافية ، ونسمات الرياح تهب في هدوء تداعب أشجار الليمون بحديقة «فيلا دكتور منصور» تتمايل معها أشجار النخيل التي تمتد ارتفاعها لتعانق السماء، وتنطلق من أحضان الأشجار في وداعة وهدوء البلابل والطيور المغردة في هذا الوقت الباكر منشدة أجمل السيمفونيات، وأعذب الألحان يداعبها أريج الورد والياسمين بألوانهما المبهجة، وعطرهما الذي ينتشر فيبهج العيون ويسعد القلوب.

وبجوار أشجار الياسمين التي انتشرت بالحديقة جلس منصور بجوار منضدة صغيرة ، فقد كانت تلك جلسته المفضلة منذ أن اشترى هذا الفيلا، وهذا الوقت الباكر من الصباح هو موعده الدائم هنا وسط حديقته الغناء وسحر الطبيعة، فمنذ أن ترك الواحة كان من عادته بالواحة الاستيقاظ مبكراً كما يفعل أهلها دائماً مع إشراقة الصباح.

فكانت تلك العادة من العادات الكثيرة التي لم يستطع ، ولم

يرغب أن يبدلها ليستيقظ منتصف اليوم كما يروق لأهل المدينة.

ثم قام يستقبل ذلك القادم من داخل الفيلا ببسمة كبيرة وقال:

ـ وأيضاً أنت ياعمي «وبرغم أنهم أولاد عم إلا أن من عادات أهل الواحة أن يعظِّم الصغير كبير السن مهما كانت رتبته في العائلة سواء عمّاً، أو ابن عم ، فكان يختصر الأمر ويقول عمي بدلاً من ابن العم»

رغم ما مضى عليك من أحداث غريبة ، ورحلة سفر طويلة ، لم تستطع أن ترقد بعض الوقت إضافة عن ميعادك الدائم للاستيقاظ. فقال زعيم القبيلة وكبير العائلة:

ـ نعم ! يا منصور، ولم أستطع الرقاد أيضاً فمنذ أمس كان ذلك المعتدي يحاول أن يتواصل معي، وكنتُ أحاول أن أطرد خياله بيدي، وأن أبعده عن ذهني، وقد استطعت ذلك وأنت تعلم هذا من أسرار الأجداد، ونحن نتقن التعامل معها، وإن كان هناك من تعلَّم هذا العلم حديثاً، فلن يكون مثلنا حيث لكل علم أسراره، وغموضه.

ولو أشيع بعد ذلك ، ظل هناك سرٌّ لا يعلمه إلا أصحابه الأوائل. ولكن ياعمي كيف وصل ذلك المعتدي إليك؟ ومن يكون؟

- يبدو أنه يريد الواصل الفتى ويبحث عنه منذ زمان، أتذكر الرسالة الأولى «إذا التقينا يوماً ما فاسأل عن الختم "، ولكن لم يجده إلى الآن، وكانت البداية العديد من الأحلام، والكوابيس التي خشيها الفتى، وعندما أتى إلى خيمتي ليسألني عن أمر تلك

الأحلام، لم يعلم منها إلا أنها مجرد أحلام – وأخفيت عنه هذا السر، حتى أعلم من يكون ذلك المعتدي؟ وماذا وراء الصغير الذي شبَّ بيننا؟

ولم تعلم بشأن هذا الأمر سوى ابنتي هند فقط. فأنت تعلم أني أخبرها كل شيء حتى يكون هناك من يستطيع أن يكمل الطريق إذا أنا قد أصابني مكروه . فنحن يا منصور منذ وجود هذا الطفل نتعامل معه كما تنص الإنسانية والأديان من الاعتناء بالغير، ولكن يابني يجب علينا أن نحترس. وهاهو قد تحقق ما كنا نخشاه.

– ولكن ياعمي ... أيكون والده هو من يبحث عنه الفتى؟

– لا يا منصور! لو كان والده لصار يبحث في الصحراء وبالقرب من الجبال حيث قذف به، فهو يعلم المكان جيداً، والدليل هذا الخطاب الذي وجدناه مع الصغير الذي يقول فيه كما تذكر "ابحث عن الختم « هو يعلم جيداً أن أحداً آخر قد يبحث عن الفتى، ولذلك يقول اسأل عن الختم، فإذا كان والده لماذا يطلب من ابنه أن يسأل عن شيء هو يعرفه؟ ولكن ما هو الختم؟ وهل الفتى يعلم ذلك؟

–لا أعتقد أن الفتى يعلم بأمر الختم فلم تظهر أي إشارة في الاتصال السابق بينك وبينه والذي دونت فيه كل كلمة.

– فلنترك أمر الورقة الأولى لحين وقتها، ونبحث في تلك الورقة الأخرى التي من أجلها جئتكَ اليوم فلا يفسر العلم إلا أصحابه وأهله وأنتَ يا منصور فخر أهل العلم.

كانت الخادمة تقوم بوضع صحون الطعام المعد للفطور فالتزم الرجلان الصمت لحين انتهت من ذلك الأمر ورحلت بعد أن أمرها سيدها بإعداد القهوة بعد نصف ساعة لحين انتهائهما من طعام الفطور.

ولكن لم يستطع أحد منهما الالتزام بآداب الطعام، والتزام الصمت، ولكنهما أكملا حديثها أثناء ذلك فقال الرجل:

ـ تلك الورقة الأخرى وضعتها كما كانت في زجاجتها ، فحين رأيتها منذ أيام قليلة مختفية بتلك المظلة علمت أنها ذات أهمية أعظم من الرسالة

فمن وضعها يعلم أن بها شيئاً هاماً ، أو شيئاً خطيراً يريد أن يحتفظ به دون مساس حتى يجد الفتى. وحين قمتُ بفتحها بحرص شديد، وجدت بها بعض الرموز الغريبة مثل رموز العلوم والكيماء ولم أدرك منها شيئاً، ولذلك أتيتك كي تعرف هل هي حقاً كما ظننت؟ وإن كانت كذلك لماذا يضع أحدهما مع طفل صغير مستنداً خاصاً بالكيمياء؟ أشعر يابني أن هناك شيئاً خطيراً يقترب منا؟

وأنهى منصور طعامه مسرعاً كغير عادته فقد كان يشعر بما يتوجس به عمه ، وبدا عليه القلق الشديد.

وبداخل حجرة المكتب عاد الاثنان إلى ما يعملان عليه، وأخرج الرجل لفافة ورقة وضعت بعناية في زجاجه فأخرجها بحرص شديد ثم بسطها على المنضدة أمامهم،واقترب منصور ونظر إلى تلك الورقة فجحظت عيناه من هول المفاجأة، والصدمة،فهذه الرسالة بها شيء

من الغموض، وتلك الوثيقة، وتلك الرموز الكيمائية، والتي شطبت بعض الحروف، والأرقام بها من كل سطر حيث لا زال ظاهراً أثر محوها عن عمد. من فعلها؟ ولماذا؟ هذا ما سأحاول البحث فيه ولن أكون بمفردي سأحاول أن أتواصل مع فريق عمل على من الزملاء والعلماء لمعرفة سر هذه المعادلة؟ أما أنا سأبتدئ بالبحث في شبكة الانترنت عن ذكرى الفتى.

فرفع كبير الواحة حاجبية مندهشاً مما قاله الدكتور منصور فلم يكترث منصور لتعجب عمه ، وواصل حديثه قائلاً.

ـ تذكر ياعمى ،كلما اتصلت عن طريق التخاطر بعقل الفتى على مراحل مختلفة من السنين، ألم تلاحظ أن الذكرى الكبرى لديه هو الحريق. ثم رجلاً يحمله ويهرب.

وهنا هبَّ الرجل واقفاً وكأنما تذكر شيئاً هاماً في تلك الأحداث فقال.

ـ انتظر منصور. تذكر الرجل الذي رأيته كل مرة يهرب بالصغير؟ كان يحمل أوراقاً بطريقة غريبة، وكأنه انتزعها من شيء وقبض عليها بحرص شديد حتى تكورت بين يديه. تلك الأوراق هي ما نبحث فيه الآن. ولكن ليس كلها. فقد كان بيديه أوراق أكثر من ذلك .

ففرح منصور من تلك المعلومة وتأكد أنه بدأ البحث في الطريق الصحيح وقال لعمه :

ـ إذاً فلنبحث عن الحريق أولاً في تلك السنة التي جاء الطفل إلينا ... وهي السنة التي ولدت فيها هند ، أليس كذلك ؟

فقال الرجل:

ـ نعم يابني ، ولنر ماذا ستجد من خلال بحثكَ الذي أشتاق أن أعرف نتيجته أكثر مما تظن. فإني أخشى على الواحة وأهلها.

ـ ولكن يا عمي أيكون هناك خطر على " زين" وهو وحيد في الواحة؟ ألا تخشى أن يتواصل معه أحد كما كان من قبل ؟أو أن يحضر أحدهما هابطاً بمظلة كما فعل مع الصغير ليكون وسط أهل الواحة وأنت هنا؟

وابتسم الرجل وقال:

ـ يا منصور عندما وجدنا الصغير كان هذا الشيء منذ عشرين عاماً ، وكانت البادية والصحراء مهمشة إلى حد كبير. أما الآن فلا يستطع أحد الاقتراب من مجالنا الجوي دون أن تعلم حكومتنا وستتعامل معه . الآن لن يستطيع أحد الاقتراب من أرضكَ أو سمائكَ يابني

وضحك منصور ضحكة مدوية كلها فخر وعزة من قول عمه الذي يسكن الصحراء ولكنه على ثقافة ثم قال :

ـ أعلم أنك مثقف يا عمي .

فقال الرجل

ـ يابني إذا كانت سبل الوسائل الحديثة منقطعة عن الواحة لكننا

سعداء بالطبيعة البكر التي نعيش فيها كما أننا نرسل أبنائنا إلى المدينة لتلقى العلم، وعندما يرجعون نتعلم منهم أيضاً ، وهكذا الدنيا العلم هو الحضارة منصور.

ولكن اطمئن فقد اتفقت مع هند على كيفية حماية الفتى وإن حدث ما تخشاه فعليها أن تتواصل معي عن طريق التخاطر ذلك السر الذي علَّمه لنا الأجداد ، وما زلنا نعلمه أبنائنا.

فقال منصور :

ـ والعلم يتعلم من الماضي والحاضر .

ثم انتبه لدقات الساعة فقد تجاوز الوقت منتصف الليل ، فانصرف كبير الواحة إلى غرفته كي يرقد ساعات قليلة ، فمازال الصباح يحمل إليهم من العمل والغريب من الأحداث.

أما منصور فتمدد على فراشه. وأمسك بيده كتاباً حاول أن يقرأه فيه كعادته قبل النوم. ولكن هذه الليلة قد جفاه النومُ ، ورفضت حواسه أن تستسلم للنعاس. وهاهى دقات الساعات تعلو مرة أخرى مشيرة إلى الواحدة صباحاً.

فأطفأ مصباح حجرته وانطلق إلى الخارج يعدو درجات السلم مسرعاً عائداً إلى مكتبه مرة أخرى ، فقد أبى ذلك السرُّ أن يتركه ينام بعض الوقت ، ففتح جهاز الكمبيوتر وبدأ البحث عن الماضي ، ماضي ذلك الفتى الذي يحمل ملامحاً أفريقية.ترى ماذا سيجد في ذلك الماضي البعيد؟

***

كان الظلام يحفُّ ربوع الواحة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وامتدت ستائر الظلام لتطوى خلفها كل شيء ، فلم يستطع أحد في ذلك الوقت أن يميِّز صورة الأشياء كما تبدو صباحاً، أو مع نور القمر، فقد توارى هذه الليلة عن السماء، من هذا الوقت من الشهر العربي، وفقد الليل بعض جماله في هذا المكان.

انتبهت هند إلى صوت خطوات تقترب من خيمتها، ومع اقتراب الخطوات ارتفع مواء بعض الماعز حول الخيام، ولكن مثلها لا يخشى غريباً ! فهي ابنة كبير الواحة وسيدها، ومن يجرؤ على الأقدام على هذا الأمر؟ من يحاول التسلل إلى خيمتها في ذلك الوقت؟ والجميع يعلم أن سيد الواحة خارجها قد ذهب منذ أيام إلى المدينة؟ أيكون هناك من يحاول أن يعتدي على داره؟

قالت هند محدثةً نفسها:

ـ محال هذا الأمر ، سيد الواحة محبوب من الجميع، ولا يوجد ضغينة بينه وبين أحد، أما باقي القبائل المتفرقة، والقليلة في المكان ففي كل مكان لنا فيها أهل، وأصدقاء، كما أن هناك أعرافاً بين الجميع لا يجوز أن يتجاوزها أي من كافة القبائل، وهي بمثابة ميثاق وقانون بيننا جميعاً!

هند تلك الفتاة الشابة التي تمتلك من الجمال ما يفوق فتيات الواحة، وتمتلك من العلم والحكمة ما يفوق بعض الرجال!

لم يكتف كبير القبيلة بتعليم كريمته وتزويدها بما علمته الحياة، ولكن لقَّنها أيضاً الفروسية، وركوب الخيال، ومبارزة السيف عندما كان يعلم الفتى " زيناً" كان لهند نصيب في ذلك العلم. حتى إن تركها يوماً اطمأن قلبه ولم يخشَ عليها شيئاً.

فكيف لمثلها أن تهاب خطوات قادم مهما كان هو؟ والتقطت سريعاً عصا غليظة كانت بجوار فراشها، ووثبت بالقرب من باب خيمتها، مستعدة بقوة لذلك القادم.

واقتربت الخطوات وأصبح طيف صاحبها جلياً قريباً من باب الخيمة، لكنه توقف، ولم يقترب ثم دنا صاحب الظل حتى التصق وجهه بالباب. وفى نداء أقرب إلى الهمس أخذ ينادى:

ـ هند . يا هند !

ويتلفت يميناً وشمالاً خوفاً أن يراه أحد. انتبهت هند لصاحب الصوت وتركت عصاها ؛ فقد كانت تعلم جيداً من صاحب الصوت الذي لم يكن سوى زين.

وبيد قوية جذبته إلى داخل الخيمة، وقد ومضت عيناها من الدهشة، وصرخت بعنف قائلة :

ـ ماذا أتى بكَ؟ هل نسيتَ عهدك لأبى؟ ألا تتذكر ما قاله أبي لك؟ لماذا أتيتَ؟ وهل شاهدكَ أحد؟

فقال زين:

ـ انتظري يا هند فأنا لم أخلف عهدي، ولذلك انتظرتُ هذه الليلة

المظلمة لأتي إليك في جنح الليل دون أن يبصرني أحد . ثم انطلق عائداً من حيث أَتيتُ . فلم أستطع أن أنتظر عودة سيدي فقد حدث شيء غريب لا بد أن أقصَّه عليك ، لأنه أوصاني بذلك ، إذا شاهدت شيئاً غريباً بالصحراء أحضر اليك متخفياً أسرده عليك ثم أرجع في جنح الظلام سريعاً دون أن يعلم أحد، وقد رأيت اَليوم شيئاً غريباً ..

ـ ماذا رأيت ؟

ـ بالقرب من إحدى الوديان فقد كانت هناك خيمة كبيرة بها ثلاثة غرباء ولم ...

وحين لفظ " زين" تلك الجملة أوشك جسدها أن يتهاوى من الصدمة وقالت:

ـ وهل شاهدك أحد منهم؟

ـ لا.

ثم قالت :

ـ كن على حذر، ولا تقرب هذا المكان، وأحط نفسك كما قال أبي بالكثير من الضوضاء لذلك أكثر من الغنم فأصواتها لا تنقطع دائماً طلباً للطعام، وانطلق زين مرة أخرى من حيث أتى.

وظلت هند ساهرةً جفا عينها النومُ في انتظار نور النهار كي تتواصل مع أبيها بالتخاطر الذي تتقنه تماماً. ثم سألت هند نفسها:

ـ مَن هؤلاء الغرباء؟

وتسللت في سكون الليل خيوط الصباح الرمادية فأبعد ظلامه لبداية نهار جديد فازداد تغريد البلابل، والعصافير المنطلقة من أعشاشها من فوق قمم الأشجار، ولم تكن هند هي فقط من تنتظر إشراقة الصباح بقلق بالغ، ولكن كان هو أيضاً هنالك ينتظر إشراق الصباح، فقد جفاه السبات طيلة الليل، كم هو يعشق تغريد الطيور ذلك الوقت الباكر من الصباح ، لكن لم ينتبه لها ذلك الوقت. ولم يعِ ما يجول بالمكان، وانتبه لصوت الخادمة تقول في تعجب:

ـ دكتور منصور لماذا استيقظتَ مبكراً هكذا؟ مازال على موعد استيقاظك أكثر من ساعة؟

فانتبه لها، وأدرك أن الليل قد ذهب، وهو لايزال وراء شاشة الكمبيوتر يعمل على بحث موضوع زين، ويحاول أن يستعيد أي معلومات عسى أن يعلم منها قصة ذلك الفتى؟

ونظر إلى الخادمة بإشفاق ، فقد كان يعلم أنها تنهض قبله بساعة لإعداد الطعام، وتنظيف المكان ، فقال لها :

ـ لا بأس ، سأصعد لغرفتي لحين الانتهاء مما تفعلين كل يوم؟ وانطلق إلى حجرته في انتظار أن يستيقظ عمُّه ، فهناك الكثير من الأخبار، والكثير من الأحداث الهامة في ذلك اليوم.

الفصل السادس

عانقت أشعة الشمس أغصان الأشجار وانخفض تغريد البلابل والعصافير الذي انطلقت من أوكارها منذ أكثر من ساعتين، ولايزال ينتظر عمه في قلق بالغ حتى طعام الإفطار الذي أعدته الخادمة قد فقد حرارته، وأخذ يسأل في ريبة أين عمى؟ ولماذا تأخر كل ذلك الوقت؟ فليس من عادته النوم إلى شروق الشمس، وهمَّ قائماً ليستدعي الخادمة لتعلمه الأمر. ولكن عمه كان في الطريق إليه قادماً خارج البيت حيث مكانهما المعتاد لتناول الفطور بجوار أشجار الياسمين بحديقة الفيلا.

واقترب الرجل الذي قال :

ـ أعتذر يابني ، فقد كنتُ على اتصال تخاطر مع هند.

فقال منصور وقد بدا عليه القلق:

ـ هند لا تتصل بكَ إلا إذا كان الأمر خطيراً ! فهل هو كذلك؟ هل

حدث شيء لزين؟

- إلى الآن لم يحدث للفتى شيء، ولكن هند أخبرتني أن " زيناً" أتى إليها أمس من المكان الذي وضعته به كما تعلم وقد كنتُ أخبرتُ أبناء أخوالي أنى مغادر إلى المدينة لأمر هام، وأريد أن يهتم زين برعي الغنم لديكم حيث أن المرعى أفضل كما أريد أن يتعلم زين لديكم دراسة تقصي الأثر لحين عودتي.

وقصاص الأثر مهنة منقذ أهل الصحراء إذ تمكِّنهم هذه القدرة من التعرف على الطريق الذي سلكه سارقو الدواب إضافة إلى تحديد أجناسهم وأطوالهم وأوزانهم، مما يسهل من تحديد الفاعل بيسر وسهولة ولا يزال العديد من أجهزة الأمن الحديثة تعتمد على القائف والقاص للأثر في بعض التحقيقات الجنائية.

كما أن البيئة الهادئة تعمل على قوة الحواس. وأن قاص الأثر قد يفوق «الجي بي إس والقمر الصناعي في تحديد بعض الأشياء، والمعالم بالصحراء وإن كان يعلم قراءة الأثر ولكنى أريده أن يجيده إجاده تامة لأمر آخر في نفسي.

أما ما دفعني لذلك الأمر هو إبعاد الفتى عن الواحة خشية أن يتصل به أحدهم عن طريق التخاطر كما حاولوا من قبل. أو يكون قد علم أحدهم من حادثة الاتصال معي مكان الفتى، فآثرت أن يبتعد عن الواحة في أثناء غيابي، أما الشيء الهام يا منصور والذي قد لا يعلم الكثير مما يقيمون بدراسة علم التخاطر أن لا سبيل للاتصال بمن تريد الاتصال به في وجود الضوضاء. فذلك يعمل

على تشتت الانتباه، وفشل التخاطر، والتواصل مع الغير، وكما تعلم أن الواحة يسودها الهدوء الشديد، ولكن في المراعي والجبال مع الغنم والماعز وأصوات الخراف العالية لأجل الطعام سيعمل ذلك على تشتت بصر، وعقل الفتى، فلن يستطيع أحد تجاوز هذا الأمر والاتصال معه. وأيضاً تعلم أن الفتى لا يعلم كثيراً من الشؤون التي تدور بيننا حتى نطمئن لذلك.

فقال منصور:

ـ أتعلم ياعمى أن إحساسك لم يخطئك، هذا ما يطلق عليه «التخاطر» أو كما يقول البعض [الحاسة السادسة] ، أو [العين الثالثة] ، ثم ضحك وقال:

ـ البلوتوث البشرى ..

وأثاره الحديث عن علم «التخاطر»، فأكمل قائلاً :

ـ لقد اتفق العلماء والباحثون على حدوثه عملياً ، فيرى بعضهم أنه قدرة خارقة، بينما أرجعه آخرون إلى قوة التركيز، فهي القدرة موجودة في جميع البشر ولكن بنسب متفاوتة وأشكال مختلفة ويمكنهم تنميتها. كما يخفى أحد الأبناء عن والده شيء فيخبره به فيتعجب الصغير من ولده كيف علم بذلك الأمر؟ كما تعلم ياعمى» في إحدى حلقات برنامج العلم والإيمان عندما كشف الدكتور مصطفى محمود عن سر قد غيَّر حياته وقاده إلى طريق الحق فلم يكن إيمان الدكتور مصطفى محمود بالله متوارثًا، واستمر نحو ثلاثين عامًا

يشك في وجود الله –سبحانه وتعالى–واتهمه الكثيرون بالإلحاد حتى أنه بعدما تيقن من وجود الله بعقله وقلبه ألَّف كتابه المعروف «رحلتي من الشك إلى اليقين

وقال الدكتور مصطفى محمود، إنه ظل ثلاثين عامًا بعيدًا عن الدين، وأنه كان يتبنى التفكير العلمي المادي، حتى حدث له شيء غريب ، لافتًا إلى أنه كان معتادًا على السهر لفترات طويلة من الليل والاستيقاظ متأخرًا ولكن في هذا اليوم رن جرس التليفون في الصباح الباكر، فأجاب بصوت يغلب عليه النوم وكان على الطرف الآخر الناقد الفني جلال العشري.

وعندما سمع العشري صوته نائماً اعتذر وأغلق الخط ، وأضاف الدكتور مصطفى محمود موضحًا أنه نام مباشرة بعدما وضع سماعة التليفون، ورأى حلمًا عجيبًا. فإنه رأى العشري يسير في شارع سليمان باشا ومعه شوقي عبد الحكيم أحد كتاب مجلة صباح الخير، وكان الاثنان يتحدثان بكلام جاد عن النقد والكتب، وعندما استيقظ من نومه اتصل بجلال العشري وحكى له ما رآه في نومه، فأكد له الأخير أنه في هذا الوقت كان فعلًا يسير مع الكاتب شوقي عبد الحكيم في شارع سليمان باشا وأنهما تحدثا نفس الحديث !

كانت هذه الواقعة سببًا في أن يعيد الطبيب المصري النظر في كل شيء وبدأ رحلته البحثية، وهو يسأل نفسه كيف رأى من غير عينين وسمع من غير أذنين؟! لم يكن اهتمامه وقتها دينيًا، لكنه كان مهتمًا بمسائل مثل اليوجا أو «الثايوصوفي»، ويعرف أنهما تناولا

هذه الموضوعات فعكف على قراءة الكتب الخاصة بهما، وعرف أن ما حدث له يُطلَق عليه علميًا الجلاء السمعي والجلاء البصري، وأن هناك تمارين ورياضات تقوِّي هذه القدرة.

لم يكتف مصطفى محمود بالكتب ، وذهب للسفير الهندي الذي علمه تمرين اسمه «شوريا نامشكر» ونصحه بقراءة كتب عن «الميديتيشن»، ورغم أنه نفذ كل ما جاء فيها بالحرف إلا أنه فشل ولم يستطع تكرار هذه التجربة مرة أخرى.

ويشك الدكتور مصطفى محمود في إمكانية أن الإنسان بالإرادة يمكنه أن يخضع هذه الظواهر لأمره ، وبالتالي يكون لديه القدرة على ممارستها في أي وقت، لافتًا إلى أنه يمكن وقتها فتح «دكان بخت أو شركة تنبؤات» وهذا كلام فارغ-على حد تعبيره، لكنه لم ينف حدوث هذه الظواهر بل أكدها.

وأوضح أن حدوثها لشخص بعينه ليس تأكيدًا على أنه صالح، أو مؤمن أو أن لديه شفافية أو مكشوفًا عنه الحجاب، مؤكدًا أنها تحدث لكل الناس وهو نوع من الرزق الذي يرسله الله لكل خلقه من كل الملل ، ومثل ذلك الفرعون الذي حلم بمستقبل مصر لمدة سبع سنوات كما ورد في سورة يوسف.

ويرى الدكتور مصطفى محمود، أن هذه الظواهر رحمة من رحمات الله، وهي محاولة لاستدراج بعض البشر من خلال هذه الأسرار الغيبية، وكأن الله سبحانه وتعالى يعطي بها مثالًا لمن يتعجب من نزول الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،

فيريه معلومة خلال نومه وعندما يستيقظ يجدها في الواقع مثلما رآها.

واعتبر هذه الظواهر، في بعض الأحيان ابتلاءات وفتناً تؤدي إلى أن الشخص يتصور أنه أصبح شيخًا ويدعي بأنه مكشوف عنه الحجاب، ولكنها دائمًا إقامة للحجة لأن الله -سبحانه وتعالى- يقيم حجته على جميع الناس حتى لا يأتي أحد يوم القيامة ينكر وجوده فيذكِّره الله بهذا الموقف ، وأكد الدكتور مصطفى محمود أن الاجتهاد في العبادة ينمِّي هذه القدرات ، ويفتح العين الداخلية للعابد، لكن العابد الحقيقي لا يفكر أبدًا في هذه المسائل، والعارف الحقيقي بالله عندما يلاحظ هذه الظواهر يخفيها ولا يعلنها وإذا حاول استغلالها والاسترزاق منها يكون نتيجة ذلك الإبعاد وقد ينتهي به الحال إلى الطعن في دينه، لأنه استعمل أعلى المواهب لأخس الأغراض.

كما أكد على أن المنهج الإسلامي بالذات هو الصراط المستقيم للوصول لهذه المعارف العالية، وهو يمثل أقرب الطرق للوصول إلى الله سبحانه وتعالى ".

- وإن كان هناك يا عمي من يحاول التجارة بمثل هذه الأمور تحت مسمى علم نفسية الأديان فهناك ما يسمى (الرايكي الياباني بمعنى طاقة الروح وطاقة الحياة) أو علم العلاج بالطاقة أما علم التخاطر فقد أطلق عليه الحاسة السادسة أو العين الثالثة. ولكن تبقى أسرار الكون في كل مكان وزمان. ومن عليه أن يتبحر في العلم فليسأل

العلماء في ذلك الأمر أو يبحث في مواقع موثقة بعيداً فبعض الوجود على شبكات التواصل الاجتماعي قد تكون وثنية وهو لا يعلم.

- نعم يابني فيجب أن يعلم الناس أن بعض العلوم هي رزق من الله يختص بها من يشاء.

لم يشأ الدكتور منصور أن يحدث عمه بشأن بحثه ليلة أمس خلال شبكة الانترنت، فلم يستطع الانتظار إلى الصباح ليقوم بذلك البحث حيث انتابه إحساس غريب، من الخوف، والقلق تزايد حين كشف عمِّه عن تلك الورقة الغريبة التي سجل بها بعض الرموز الكيميائية. بعض الرموز الذي يعلمها تماماً. لكنة انتظر حتى ينتهي الرجل من طعام الفطور. ولكن يبدو أن هناك شيئاً فقد كان الرجل شارد البصر: ينظر إليه دون أن ينتبه لما يقول لانشغال خاطره الذي ذهب به بعيداً عن هنا. حيث عبر بفكره الصحراء حيث يتواجد زين.

فقال منصور متسائلاً

ـ أهناك شيء ياعمى؟ لستَ كعادتك!

- نعم يا منصور هناك أمر آخر لم أخبرك به، عندما اتصلت بي هند قالت شيئاً غريباً ، وهذا الشيء هو ما دفع زين للذهاب إليها في منتصف الليل فقد شاهد الفتى خيمة بالقرب من الواحة بها ثلاثة رجال أغراب!

- ولكن يا عمي أنت تعلم أن هناك الكثير من رحلات السفاري

ومحبي الصحراء.

- أعلم ، ولكن هذا المكان لم يخيِّم به أحد من قبل ، ولم نر رحلات السفاري في هذا الأماكن النائية البعيدة داخل الصحراء ولا يعلم بدروبها إلا أهلها.

- وهل تظن أن هناك من يكون قد تتبع الفتى؟

- لا أظن ذلك في الوقت الحالي بهذه السرعة ، ولكن أخشى الغرباء في ذلك الوقت. عموماً سأمكث معك يومين قادمين ثم أذهب وأرجع إليك مرة أخرى. فرحلات السفاري تعنى صيد الوحوش فماذا يريد هؤلاء من صيد الصحراء؟

- لكن يا عمي لن تتمكن من العودة هكذا سريعاً. فقد قمت بالبحث ليله أمس، ولم أرقد حتى الآن. فاندهش الرجل وقال:

ـ أحقاً ما تقول؟ وماذا وجدت يابني؟

- هناك الكثير من الأمور الخطيرة التي وجدتها أثناء البحث. قمت أولاً بالبحث عن حريق أو تفجير هائل في السنة التي جاءنا فيها الفتى فكانت نتيجة البحث خمسة وثلاثين مكاناً بالعالم حدث فيهم تفجير وحرائق .

ثم أنشأت قائمة بالانفجارات، والحرائق المتشابهة فضاق البحث إلى عشرة قوائم، فكانت أول قائمة تحتوي على عبارةعن تفجيرات إرهابية ببعض الدول معظمها أماكن تجارية، أو مدارس، السيارات في الطرق المختلفة. أيضاً كما تعلم هناك الكثير من الصور تم

وضعها مع تلك الأحداث التي أذاعتها وسائل الأعلام المختلفة في ذلك الوقت. فتم البحث أولاً عن الصور لكل قائمة على حده، وقد احتفظت بتلك الصور كي أطلعك عليها فأنت الوحيد التي تعرف من خلال الصورة كيف كان الرجل الذي يحمل الطفل، أو المكان المحترق كما شاهدت عند اتصالك الذهني بالفتى. الذي احتفظ بمشاهد هذا الحدث المروع. وذلك سييسر علينا من أين نبدأ حتى نختزل الوقت. فالصورة تعنى لنا الكثير في البحث وإن استحال وجودها فسأقوم بالبحث بالطريقة المعتادة من القوائم، ولكن ذلك الأمر قد يمتد عدة أيام أخرى. وتقدم منصور إلى داخل الفيلا حيث حجرة مكتبه، ومقر عمله حين يكون بالمنزل، وتقدم من جهاز الكمبيوتر الذي لم يغلقه منذ ليلة أمس واقترب معه الرجل في لهفة، وأخذ الاثنان في تصفح صورة الحوادث التي صنَّفها الدكتور منصور كل مجموعة على حده حسب القوائم المعدة لذلك.

***

واقتربت الساعة من الخامسة مساء حتى أشفق سيد الواحة على منصور الذي أنهكه التعب، ولم يرقد منذ ليلة أمس فحقاً يشعر كثيراً بالتوتر والهلع الذي يجعله يتمنى أن يعلم نتيجة ما قام به منصور، ولكن منصور كان يشعر بشيء آخر شيء أخطر مما يجول بعقل عمه. أمر إن صدق حدسه سيكون أمراً جللاً، لكنه لم يحاول أن ينقل هذا الشعور إلى عمه حتى يتأكد مما يخشى.

فقال الشيخ.

ـ يا بني أنك لم ترقد منذ ليلة أمس فيكفي هذا الآن تستطيع أن ترتاح قليلاً ثم أكمل غداً.

فقال منصور مازحاً يحاول أن يخفى توتره :

ـ يبدو أنك قد هرمتَ يا عماه ولم تعد تحتمل مواصلة العمل.

ثم ابتسم وهو ينظر في عيني الشيخ، الذى أثاره هذا القول فقال:

ـ لا أحد يهرم في الواحة ، أنتم هنا من تهرمون وتشيخون حيث التلوث يملأ الهواء والطعام. كل شيء لدينا ينبض بطعم الحياة أما أنتم فلا حياة لديكم بدون تلوث، ولكن يا بني أشفق عليك من التعب، فيكفي اليوم ما قمت به.

فقال منصور:

ـ إذاً نسترخي بعض الوقت لتناول الغذاء ، ثم نكمل إذا كنتَ كما تقول لم تهرم بعدُ .

فابتسم الرجل وقال مستسلماً :

ـ لكَ ما تريد.

وانطلق الاثنان حيث مائدة الطعام المعدة منذ وقت قليل، وساد الصمت الرهيب بينهما، فلم يلفظ أي منهما بكلمة ، بدا كلٌ منهما شارد الذهن بعيداً عن الآخر، وإن جمعتهما مائدة واحدة، فمنصور يفكر أن الأمر أكبر مما يتخيله عمه ولذلك يسرع بحثاً خشية أن يصيب الفتى مكروه قبل أن يصل إلى لب الموضوع، وقد يتعلق

بشيء مفجع فعلم الكيمياء من أخطر العلوم فمنه قد تنقذ حياة، ومنه قد تباد الحياة ذاتها، هو علم التقى فيه الموت والحياة، وكل إنسان عليه أن يختار إنقاذ الحياة، أو إبادتها.

ولم يستمر الصمت طويلاً على مائدة الطعام فقد صرخ كبير الواحة فجأة ، وهبَّ واقفاً ، واندفع سريعاً حيث غرفة المكتب يطلب من ابن عمه أن يتبعه سريعاً إلى استعراض بعض الصور مرة أخرى فهناك شيء غريب بإحدى الصور. شيء قريب مما نبحث عنه. وارتفعت دقات قلب منصور في انتظار تلك الصورة.

وبسرعة مدهشة أعاد منصور مجموعة من الصور كان عمه أشار إليها. إلى أن ورد بعضها أمامه فكان بعضها مشوشاً غير محدد المعالم تماماً حيث إن صور الصحف غالباً ما تكون بدون ألوان أبيض، وأسود فقط، وإذا مضت عليها السنون، أصبحت أقل وضوحاً من ذي قبل مثل الصور الملونة التي تحتفظ بالتفاصيل بعض الوقت. ثم أشار الرجل إلى بعض وقال بثقة تامة:

- هاهى الصور رغم عدم وضوحها جلياً إلاأنها ما نبحث عنه يا دكتور منصور.

ومع التكنولوجيا المتطورة من علوم الكمبيوتر لم يكن هذا الأمر بالشيء العسير فقد كانت هناك برامج كثيرة لتنقية الصور كما يمكن أيضاً إعادة تلوينها وإن مضى عليها سنوات.

وقال منصور وقد شعر بدقات قلبه ترتفع :

ـ سأجنِّب هذه الصور الآن ـ ثم أعمل عليها لنرى ما بها.

أما الشيخ فقد برقت عيناه بريق المنتصر الذي وجد ضالته. ولكن لم يعلم حتى الآن ماهي؟ واقترب الوقت من العاشرة مساء وقد انطلق الشيخ لحجرته أما منصور فتمدد على أريكة حجرة المكتب كان قد قرر الراحة ساعتين أو ثلاثة ، ثم ينهض إلى العمل مرة أخرى.

ولكن هل سيستطيع النعاس؟ لقد كاد عقله، ولسانه أن يبوحا بما يجول بخاطره وهواجسه المريعة منذ وقع بصره على تلك المعادلات الناقصة، قد صارت ظنونه صحيحة بنسبة كبيرة ، ولكن بعد أن أدرك ذلك تماماً فلن يستطع العمل وحده بعد الآن. حينها سيكون الأمر أشد خطراً مما سبق .

واستسلم الدكتور منصور لنداء الجسد المنهك منذ يومين، وذهب في سبات عميق ، لم يدرِ أن غداً سيكون من الأيام الفاصلة في هذا البحث !

الفصل السابع

طاف خياله بالصحراء فتذكر طفولته في الواحة حول أشجار النخيل، وبجوار نبع المياه ، والجبال. فلم ير الصحراء يوماً من الأيام كما يراها الآخرون . فللصحراء أسرار، وعلوم لا تمنحها سوى لأبنائها .

الصحراء علَّمته أن لكل شيء روحاً ، ولغةً ، وإن كان جماداً كالرمال، والجبال. ومَن يستطيع فهم تلك اللغة يتمكن من فهم الأشياء. كما علمته الكيمياء البحث عن الأشياء والصبر على الاحتمالات، ومن خلال روح الكيمياء تستطيع أن تجد ما تبحث عنه سواء كان قطعة من الماس ، أو أكسير الحياة ، تستطيع أن تبحث عن الداء والدواء.

كم علَّمته الصحراء أيضاً لغة الصمت ، والاكتفاء بالنظر في الكثير من المواقف ، علمته الإصغاء بدقة إلى الأشياء. فالصمت والإصغاء هما لغة الكون النقية ، معهما لن تحتاج لتفسير الأشياء، فما يبقى في الذاكرة إلا ما سمعت وشاهدت.

الصحراء علَّمته ألا يصدق ما يراه بسرعة، وينتظر حتى يدرك حقيقة الأشياء.وتعلم من الصحراء أيضاً أن ليس كل الأرواح طاهرة كما يبدو مظهرها البديع. فأغلي الجلود ثمناً جلود الثعابين وهي تحمل داخلها أخطر السموم فتكاً بالأرواح.

علمته الصحراء أن الكثبان الرملية تتغير بفعل الرياح، أما الصحراء فتبقى كما هي ، الأرض، والسكن، والأمان، الوطن الذي لا يتغير.

لم يمض سوى ساعتين أو أقل من ذلك حتى وثب منصور عن أريكته، ليواصل عمله مرة أخرى فقد ضاقت الدائرة مع وجود تلك الصورة التي وصفها عمُّه ، وتجنيبها للعمل عليها بعد ذلك. وذهب في ذلك الوقت المتأخر من الليل لعمل كوب من القهوة حيث أن الخدم كانوا في سبات عميق.

كان أشد لهفة أن يعلم في أي الأماكن أخذت تلك الصورة؟ وما ذلك الموضع؟ وما قصة الفتى زين التي توارت سنوات طويلة ثم عادت من جديد؟

أسرعت أنامله تعمل في سرعة ماهرة باستعمال تلك التكنولوجيا فعمل أولاً على تنقية الصور من الشوائب التي بها، وامتدت يده إلى أخرى حتى انتهى منها جميعاً ، ثم قام بعد ذلك بتقسيم الصورة الواحدة إلى مقاطع صغيرة قام بتكبير كل مقطع على حده .

ولهول ما كان بانتظاره من مفاجأة بإحدى الصور التي أشار إليها عمُّه من قبل. هذا الحريق الذي يراه بالصورة الأولى. كبير

الحجم تطاير حوله كثير من البشر، والأشياء من أثر الانفجار، ولكن المخيف في الأمر أن الانفجار كان خارجاً من باطن الأرض، أما فوق مكان الانفجار فلم يكن سوى مكان شاسع المساحة حول بناء صغير من عدة طوابق لا يتكون سوى من طابق أو اثنين على الأكثر كما بالصورة.

أخذ يسأل ما هذا المكان العجيب؟ وبإحدى الصور الأخرى كان بعض الرجال يركضون، وقد ارتفع بعضهم مع الحريق، والانفجار عدة أمتار إلى أعلى فكان مشهداً تدمى له القلوب، ومنهم من شبَّ بملابسه الحريق.

كان المنظر أبشع ما يكون أن يتناول معه قهوته التي أعدها سابقاً، ومضى الوقت، حتى فقدت مذاقها. أحاط منصور رأسه بكلتا يديه في أسى بالغ، وهو يتفقد أجزاء الصور التي تم تكبيرها. وهدأ قليلاً ثم تابع ما يعمل عليه في حزن شديد. هاهى الصورة الأخرى وشهق من الرعب وصاح:

ـ ها ما شاهده عمى. الرجل يحمل الصغير ويحاول الفرار من الجحيم.

فأخذ منصور الصورة، ثم قام بعمل عدة مقاطع أخرى لها كان يحاول أن يرى ما يحتويه كل جزء منها بدقة بالغة. وهاهو يعمل بكل جد، وفى سرعة تامة حتى أوشك النهار أن يبزغ.

وواصل الدكتور منصور ما يقوم عليه ، وأخذ يدوِّن في دفتره كل ملاحظة يراها بتلك الصور حتى وصل إلى مقطع صغير بالصور

هذه المقطع توقف عنده عدة دقائق .

وكان هذا المقطع للرجل الذى يحمل الصغير ويحاول الهرب به كان هناك يد خلفه تحاول أن تجذبه بشدة ؛ مما جعله يلتفت إليه إلى الخلف ، ثم كان هناك ضوء صغير قد أصاب ساق الرجل أثناء الفرار لم يتضح في الصورة هل هو بعض الانفجار قد أصاب ساقه أو رصاصة أطلقها أحدهم نحو الرجل عسى أن يتوقف بالصغير ، وإن كانت تبدو طلقة مسدس ، لكنه لم يجزم بعدُ ، فحاول تكبير هذا الجزء مرة أخرى لكنه فشل في ذلك .

وبنفس المقطع كان هناك شيء آخر آثار دهشته ، هو هذا الرجل الذي يحمل الصغير ؛ فالرجل ذو بشرة بيضاء ، والطفل يحمل بشرة داكنة أقرب إلى السواد.

أيضاً من تلك الملاحظات التي دوَّنها في دفتره أن الطفل كان يبدو بعمر يستطيع معه الحركة والسير عندما فرَّ الرجل من مكان الانفجار فلماذا مازال يحمل الصغير وممسكاً به بشدة تبدو واضحة في الصورة جيداً ؟ وأخذ يتساءل إذا كان هذا الطفل هو زين فمن يكون هذا الرجل؟

واقترب من تفاصيل الصورة ليرى الأوراق التي أشار إليها عمُّه في تخاطر الفتى كما وصفها تماماً وتبدو أنها ما بين أيديهم الآن؟

ولكن أين اختفى الرجل؟ وما هذا المكان؟

ودوَّن منصور كل ملاحظاته التي شاهدها من خلال دفتره

الخاص في انتظار أن يستيقظ عمُّه لمناقشتها معه قبل أن يعود إلى الواحة.

وإلى أن ينهض عمُّه من نومه عليه أن يعمل على شيء هام. فقام بإدخال رابط الصور في إحدى محركات البحث الشهيرة للبحث عن مكان الصورة ومكان الحريق والقصة كاملة. ضغط مفتاح البحث وقد ارتفعت دقات قلبه في انتظار أن تضحى هواجسه حقيقة.

ووضع يده على فمه في انتظار نتيجة البحث وتعجب أن نتيجة البحث لم تفضِ إلا إلى عدد مواقع لا يزيد عن عشرة فقط هي عدد مصادر البحث بالصفحة الأولى من الكمبيوتر.

وضغط على أول موقع قد نشر هذا الخبر، وفغر فاه من الدهشة والرعب فقد تحققت مخاوفه، وهاهو يرى تفاصيل ما كان يخشاه واضحاً جلياً أمامه.

***

حول مائدة الطعام نظر في ذهول إلى عمِّه وقال:

ـ أرى مخاوفكَ صحيحة ياعمي. فمنذ سنوات كنا نقرأ بالصحف؟

مشروع البنتاغون للفيروسات المعدلة عام ٢٠٠٨ حتى أنَّ بعض وكالات الأنباء قد جمعت مصادر علمية جادة مفادها أنَّ حكومة الولايات المتحدة قد جعلت من أنفلونزا الطيور «سلاحاً»، وإذا كانت التحقيقات صحيحة، فربما يطلق ذلك وباءً جديداً في أرجاء الكوكب، وهو وباءٌ قد يكون أسوأ من الأنفلونزا الإسبانية

للعام ١٩١٨ التي فتكت بثلاثين مليون شخص في العالم قبل أن تختفي.

وإنّ تجارب البنتاغون والمعهد القومي للصحة في الولايات المتحدة التي أجريت باستخدام البقايا المجمدة لفيروس ١٩١٨ هي جنونٌ علميٌ محض. فهل توشك الولايات المتحدة على إطلاق وباء نوعيّ عنصريّ ؟

ولماذا لا يكون الحلم الأمريكي قد عاد مرة أخرى وتمكنت أمريكا من إطلاقه على العالم وليس بدأً أن يكون ذلك الإطلاق من أرضها فمن اليسير أن تطلقه من إحدى الدول المنافسة لاقتصادها دون أن تدري ذلك الدولة ؛ فتلك الحروب الخفية والصناعات القذرة!

وكما ذكر الإعلام العالمي أيضاً أن الصين قد تكون متورطة في مثل هذه الصناعة أيضاً على تطوير الفيروسات التي ربما تؤدي إلى وباء من صنع الإنسان لا يقل خطورة أيضاً المحاصيل المعدلة وراثياً والتي تعد إسرائيل رائدة في ذلك المجال الذي يؤثر على صحة الإنسان وتصدره للعالم أما روسيا والتي تعد أحد الدولة الكبرى في ذلك فقد استطاع علماء روس التوصل لـ «نظام مناعة اصطناعي» لحماية الاختصاصيين الذين يعملون في مناطق يتم فيها استخـدام الأسلحـة البيولوجية، عن طريق الخلايا اللمفاوية المعدلة وراثياً كما ذكرت الصحف، ويَمكن هذا النظام المختصين الذين يعملون في مناطق تستخدم فيها الأسلحة البيولوجية، القيام بمهامهم وأبحاثهم دون الخوف من الإصابات.

من هنا نعلم يا عمي أن هناك دولاً عظمى تصنع الوباء للإنسان ثم تصنع له الدواء من أجل مصالح شخصيه فقط وإن تم فيها إبادة الجنس البشرى. هناك مافيا خلق الفيروسات تلك الجرائم الخفية التي يعلمها العالم أجمع ، ولكن لا يرى صناعتها أو من أين أطلق الوباء. ولكن فور وجودها يسأل عن الدواء!

وهذا ما كنت أخشاه منذ رأيت المعادلة الكيمائية الناقصة هذه الصور التي عرضتها عليك وقمت باختيار عدد منها، بعد تناول فطورنا ستشاهدها مرة أخرى ، وأسرد لك نتيجة بحثي عليها ليلة أمس.

فهناك بعض الملاحظات أريد أن أتأكد منها في بعض الأشياء،

بعض المواقع القليلة التي تناولت الانفجار تضاربت في تقاريرها الصحفية فمنهم يقول انفجار مستشفى ومختبر بالقارة بأحد دول القارة السوداء ولم يذكر تحديداً ما الدولة ؟ أو عن أي مختبر يتحدث؟ وهل هذا المختبر يتبع المستشفى؟

لكن حجم الانفجار يوحي بشيء أكبر من ذلك. أما بعض وكالات الأنباء فلم تعط الأمر أهمية كبرى واكتفت ببضعة أسطر ولكن جملة واحدة استوقفتنا، قال الخبر انفجار مختبر ومقتل عدة علماء من جنسيات مختلفة. وكما ترى ذكر الخبر المقتضب مختبراً، ولم يذكر مشفى كما ذكر عدة علماء من جنسيات مختلفة!

يبقى أن أعلم أين تلك الدولة التي حدث بها الانفجار وما هذا المختبر الذي خشيت أن يكون ما أفكر فيه من قبل. لا زل الصراع

المصالح على ثروات القارة السمراء لا سيما بين الدول الكبرى لا ينتهي.

نظر كبير الواحة في أسى ، وقال :

ـ وتبقى أفريقيا في البداية سوقاً للنخاسة ، واليوم تجارب محرمة تنتهك حرمة الإنسانية ثم قال:

ـ لكنك تتقن الفرنسية وقد عملت بالقارة السوداء منذ سنوات ، وكذلك الإنجليزية ، فلماذا لا تبحث بأي لغة منهما ؟؟

فاندهش منصور ونظر إلى عمه قائلاً :

ـ يا الله! كيف غاب هذا عن بالي ، أتدري يا عماه أن هناك تسعاً وعشرين دولة أفريقية تتحدث الفرنسية ، وأن في أفريقيا قرابة ٨٠٪ ممن يتحدثون الفرنسية في العالم ، وقد تدهش لو علمتَ أن أربع عشرة دولة أفريقية مازالت تدفع الضرائب حتى وقتنا هذا ..

وانظر لهذا الخبر القريب الذي أثار ثورة غضب أفريقية على مواقع التواصل الاجتماعي .. تصريحات منسوبة للملياردير الأمريكي بيل جيتس عن عزمه تمويل مصانع لإنتاج لقاح يعالج مرضى فيروس كورونا المستجد «كوفيد ١٩»، وأن مشروعه يبدأ من جنوب أفريقيا، بحسب موقع «ثاوث أفريكان».

التصريحات أثارت ردود أفعال كثيرة داخل القارة السمراء، ونشرت صحيفة «نيوز ٢٤» الجنوب أفريقية اعتذاراً لمتابعيها عن نشر معلومة خاطئة حول إجراء الاختبارات في أفريقيا عن لسان

بيل جيتس: «نشرنا يوم السبت قصة عن دعم بيل جيتس إجراء اختبارات حول لقاح لفيروس كورونا في أفريقيا، هذا غير صحيح، ونعتذر عن الخطأ».

الأمر الذي رفضه تماماً سكان جنوب أفريقيا، وأعرب العديد منهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي عن استيائهم، حيث علَّق البعض قائلاً : «لسنا حقل تجارب»، خصوصاً بعد تصريح سابق من أحد العلماء الفرنسيين حول إجراء التجارب في جنوب أفريقيا.

وبدوره، تساءل رئيس قسم الأبحاث في المعهد الوطني للصحة والأبحاث الطبية كاميل لوكت: «هل يجب علينا إجراء هذه الدراسة في أفريقيا، حيث لا توجد أقنعة ولا علاج ولا رعاية مكثفة؟»

- ولكن يا بني هل ستظل أفريقيا مكاناً للاختبارات ، ألا يكفي استعباد أهلها من قبل؟

وقال كبير الواحة :

ـ سأنطلق غداً في الفجر ، فهناك أمور في الواحة لابد أن أتواجد من أجلها ، فقد اتصلت هند بي مرة أخرى ، ويبدو أن الخطر يقترب من الفتى، ويجب أن أكون هناك ، كما عليكَ أن تسرع يا دكتور منصور لنعلم ماذا وراء الفتى ، يبدو أننا على مشارف معركة لم نعلم إلى الآن من هم أطرافها. أو لماذا تدق طبول الحرب؟

الفصل الثامن

التقاليد والأعراف ما يتميز به أهل الصحراء دون ميثاق مكتوب فالكلمة عهد قاطع وميثاق قائم، وإن تغيرت بعض الأشياء يبق للصحراء قوانينها التي لا تتغير.

اقترب الوقت من منصف الليلة الثالثة كان ضوء القمر فيها يغمر الصحراء ، فبات كل شيء واضحاً جلياً ، وقد اقترب سيد الواحة من الوصول إلى دياره ، واختار أن يصل في هذا الوقت المتأخر حتى يرى الصحراء ليلاً بجوار هذا المكان الذي أشار إليه زين، حيث خيمة هؤلاء الغرباء ففي تلك الساعة لن ينتبه إليه أحد فالجميع في سبات، ومهما كان الغرباء على علم بالصحراء فلن يكونوا في براعة أهلها في معرفة دروبها، ولكن هل كان الغرباء على علم بهذا المكان الذي أقاموا به خيمتهم؟

فهذا المكان بعيد عن الواحات العامرة بالبشر كما أنه بعيد عن أماكن التخييم التي يقوم بها محبو رحالات السفاري والتخييم. فكما تقول حكايات وأساطير الصحراء إن هذا المكان مسكون

بالجن، وأن لم ير أحداً هذا بعينيه من قبل، ولكن الجميع يُؤثر السلامة بعيداً عن قوة لا يعلمون عنها شيئاً .

فمهما كنتَ من محبي الصحراء يجب ألا تثق بها ثقة عمياء، ولكن انظر للأشياء جيداً قبل الأقدام، ومهما كان ما تراه فهو جزء يذكِّرك بعظمة الخالق في كل شيء حولك. ولكن لنر أولاً ما قصة الرجال الغرباء؟ .

وهاهو يقترب من ظلال أشجار النخيل الباسقة حتى اقترب من الخيمة الوحيدة المضيئة في ذلك الوقت المتأخر. فأرخى لجام حصانه ، وترجل عنه.

وكان في استقباله تلك الشابة الجميلة التي لم يغمض لها جفن شوقاً لوالدها الحبيب. وقال الشيخ :

ـ يا هند لن أستطيع النوم حتى أستمع منكِ لكل شيء قاله زين منذ أن رحلت عن الواحة.

وأشفقت الفتاة على أبيها الذي أنهكه السفر، وألحت عليه أن ينام الساعات القليلة المتبقية على شروق الشمس. فاستسلم لإصرار ابنته ، وأطلق لنفسه العنان فذهب في سُبات عميق.

امتدت خيوط الشمس سريعاً ، واستيقظ الرجل من سباته على صوت هند تتحدث بصوت هامس بالقرب من حجرته مع أحد الفتيان. كان يعلم صاحب الصوت جيداً ، فكم كان يتمنى أن يلتقيه ليلة أمس فأسرع بارتداء ملابسه ، وأزاح باب حجرته الذي

لم يكن سوى حاجز من القماش السميك يفصلها عن باقي الخيمة، ووثب صاحب الصوت من مكانه ، فاحتض كبير الواحة بود وشوق ولهفة، وكذلك فعل الرجل الذي تلقى ذلك الفتى الحبيب الذي لم يكن سوى زين ربيب كبير الواحة وسيدها.

وجلس زين بجوار الرجل، وانصرفت هند لإعداد طعام الإفطار فقال زين :

ـ فعلتُ كما أمرتني يا سيدي تماماً. ففي الصباح كنت أذهب بالغنم إلى مرعى جديد، وأتحسس المكان في هدوء بحثاً عن أي شيء قد يكون غريباً ، وفي أحد الأيام وجدت تلك الخيمة لثلاثة رجال غرباء يقيمون خيمتهم في المكان الممنوع حيث يسكن الجن كما تقول الحكايات فقال الرجل:

ـ وماذا فعلتَ بعد ذلك؟ وهل شاهدك أحدهم ، أو تبعك؟

قال:

ـ لا. فأنتَ تعلم عندما نقوم بمراقبة أحد نتخذ من الغنم رفيقاً حتى يتم محو آثارنا فوق الرمال!

فقال الرجل :

ـ نعم ؛ ولذلك أرسلتكَ تعسعس حول المكان بعيداً عن الواحة حتى إن شاهدك أحد، أو تتبعك تكن بعيداً .

وصمت الرجل، ولم يكمل وقال في نفسه:

بعيداً عن المكان الذي ألقيت فيه من عشرين عاماً ... حتى يمكنني

معرفة ما ورائك يابني!

وانتبه لصوت زين يقول :

ـ بعيداً عن أى شيء يا أبي.

فابتسم الرجل وقال

ـ نعم يابني سأظل أباك الذي يخاف عليك، ويحبك كابنه الذي أنجبه .

واقترب زين ، فارتمى في حضن الرجل فهنا يشعر بالأمان، ويشعر بالسكينة الذي وجدها منذ سنوات، وإن كان يعلم جيداً أنه مجرد طفل يتيم لا يعلم عن ماضيه شيئاً ، لكنه يعلم حاضره ، ويعلم إلى أين ستكون خطواته التالية في ظل هذا الرجل القوى الحنون.

فقال الرجل:

ـ هل تعلم يا زين لماذا كنتُ أعلِّمكَ قراءة الأثر؟

فقال الفتى بتعجب:

ـ مثل رجال الصحراء !

فقال الرجل:

ـ لا ولكن سأحدثكَ بشأن ذلك فيما بعد ولكن أريد أن أسألكَ هل مازال هؤلاء الغرباء موجودين إلى اليوم في تلك البقعة؟ أم رحلوا؟

فقال زين:

ـ بل مازالوا هناك ولكن لم أر وجوههم سوى مرة واحدة وهي عندما كانوا يقومون بنصب خيمتهم ؛ فهي لا تشبه خيامنا، ثم بعد ذلك لم أشاهدهم، ولكن خيمتهم كما هي، وأيضاً كان هناك اليوم رماداً بقي من إشعال الحطب ليلاً أمام الخيمة.

فصمت الرجل وأخذ يفكر ثم قال :

ـ لمثل هذا اليوم يا زين قد علمتُكَ قراءة الأثر لتعلم خطى الغرباء، أو الأعداء، أو إذا كنتَ يوماً وحيداً بالصحراء ولم تر نجماً لتهتدي به، أو ضلَّ طريقك تستطيع أن تتبع الأثر ففي قراءة الأثر قوة، وهو دليل الصحراء الهام يا بني.

غداً سنتلثم ونستخفي لنعلم من يكون هؤلاء الرجال ثم بعد ذلك سنعرف إلى أين يرحلون من خلال تتبع أثرهم، ولنر إلى أين سيقودنا ذلك التتبع. واليوم عليكَ أن تتخذ لك فرساً ليكون رفيقك وصديقك دائماً فقال الفتى، ولكن يا سيدي ألا ترى أن الجمل يستطع تحمل المشقة أكثر من الفرس فهو سفينة الصحراء .

فابتسم الرجل وقال:

يا بني قد يكون الجمل أسرع، ولكن الجمال خائنة فقد تسير مئات الأمتار، ولا تتعب ولا تبدي أى إشارة على ذلك التعب حتى إن فاض بها الجهد والتعب جثت فجأة على ركبتيها، وهنا لن تستطيع أن تفعل شيئاً ، وإن عاقبتها ودفعتها بالقوة فالجمل

لن ينسى لكَ إهانته، واعلم جيداً أنه سيقتص منكَ في أي وقت. أما الفرس فهي تعرف قدرها وطاقتها ومتى تتعب تتوقف ، ومعها ستشعر بالأمان وإن طال وقت السفر قليلاً. وكذلك البشر يابني يجب أن نبيح بمكنون أنفسنا، ولا نحتمل ما يفوق طاقتنا ، ثم نخور كما تخور الجمال.

وفى صباح اليوم التالي كان قطيع الأغنام يتبعه ذلك الراعي الملثم ، وذلك الشيخ العجوز الذي يتوكأ على عصاه وقد تلثَّم الاثنان فلم يظهر سوى أعينهم اتقاء شمس الصحراء الملتهبة، لم يكن الراعي وذلك الشيخ فقط وحدهما بتلك البقعة من الصحراء ولكن على مرمى البصر منهما مجموعات أخرى من الرعاة.

فقال الشيخ العجوز أو كما يبدو:

ـ لن تهزم الصحراء أهلها أبداً.

فابتسم الشاب فقد كان يعي تماماً ما يعنيه الشيخ العجوز وانطلق جميع الرعاة في طرق متفرقة ولكن على مرمى البصر بينهم. فما كان ذلك الراعي سوى زين وكبير الواحة يقومان بتتبع خطوات الغرباء بعيداً عن خيمتهم.

عندما ترك كبير الواحة "زيناً " لدى أهله في الواحة البعيدة أسرَّ لكبيرهم سر زين الذي لاح في الأفق من قريب. كانوا مثل الجميع على علم بقصة زين منذ سنوات منذ أتى الجميع للتهنئة بمولد ابنته هند فكانت تلك الحادثة الشهيرة التي لم يستطع أحد أن ينساها قصة الفتى الذي وجد جانب النبع ، وشبَّ ربيب كبير

الواحة وسيدها. ولكن للصحراء قوانين وأعراف أقوى من المواثيق المكتوب ومن أهم هذه الأعراف نصرة الأهل والأصدقاء والوقوف معهم في السراء ء والضراء. كما كان من أهم قوانينهم عدم الخيانة، ولذلك استعان الشيخ بأهله وأصدقائه مما يكتمون السر حتى تتضح الحقيقة ، وأيضاً حمايةً للقبائل لما هم مقبلون عليه فلم ير بداً أن ينتشر السر الآن.

ولذلك مجموعات الرعاة الخمس الأخرى ما هم إلا أهل الصحراء وعون الرجل وأهله. فكانوا بالقرب منهم تحسباً لأي خطر قد يكون قريباً من الجميع.

وانطلق الفرسان في هيئه الرعاة كلٌّ يخفى سلاحه بداخل سراج الخيول والدواب التي تسير خلف قطيع الأغنام.

وانطلق زين ينظر الأثر يتتبعه الغنم من الخلف؛ لتمحو أثر أقدامهم فوق الرمال. وانتصف النهار وارتفعت الشمس في كبد السماء وارتفعت معها حرارة الشمس ومازال الركب يتبع تلك الآثار الواضحة بالرمال حتى اقترب الرعاة من حافة هضبة عالية. انتهى عندها أثر الأقدام. كان زين مازال مبتعداً قليلاً عن الهضبة بالقرب من أغنامه. كما كان تحت مرمى بصر باقي الرعاة. فأشار له كبير الواحة أن يصمت ، ويبقى بعيداً كما هو، ثم اقترب الرجل في حرص شديد، وقد هاله ما رأى ، وحبس صيحة كادت تنطلق من صدره فكتمها بيده، وأخذ يسمع، ويشاهد في صمت ما يدور خلف تلك الهضبة القريبة. فعبر الرمال والصحراء تعود الأشباح

مجدداً.

اقترب الدكتور منصور من مجموعة من العلماء اصطف بينهم وأخذ يشرح في توتر أصبح بادياً على وجوه الجميع ، فأخذ يعطيهم واحداً تلو الآخر مجموعة من المستندات أخرجها من حقيبته، تبعها بمجموعة أخرى من الصور كان يعمل عليها منذ أيام.

ساد الصمت عليهم جميعاً ، فمنهم من يتفحص الصور وآخر يقرأ التقارير، والمستندات الذي وزعها عليهم الدكتور منصور. ثم قال أحدهم:

ـ ولكن يا دكتور منصور إذا كان هذا ما توصلتَ إليه ، فالموضوع خطير جداً.

فقال منصور :

ـ نعم يا دكتور، ولذلك عرضتُ الأمر على حضراتكم ؛ لنرى هل يمكننا أن نتوصل إلى شيء ، فالحدث جلل كما ترون ، سنوثق كل ما نقوم بعمله على هذا الموضوع الخطير، ولنر بعد ذلك إلى أى مدى قد اقتربنا من الحقيقة.

فقال آخر :

ـ أي حقيقة يا دكتور؟ الحقيقة هنا واضحة وضوح العين، وجميع المهتمين بهذا العلم يعلمون بقصة ذلك المختبر، وإن كان هناك تعتيم متعمد من وسائل الإعلام الأجنبية، والإعلام في أفريقيا لا يهتم بمثل هذه الأشياء، ولا يُسلَّط عليها الضوء.

فكما قلتَ يا دكتور منصور، والصور التي عملتَ عليها، والانفجار الذي حدث ما هو إلا مختبر للتجارب القذرة. مختبر لتخليق الفيروسات برنامج تقوده بعض مافيا الدواء في العالم، وتديره بعض الدول الكبرى التي تسعى لتقوية سلاحها حتى أصبح السلاح البيولوجي أخطر الأسلحة حتى الآن بل فاق القنبلة الذرية. فهو يدمر الهدف دون أن تفقد الجنود والأسلحة كما يحدث في الحروب العادية.

- ولكن يا دكتور ذلك المختبر يعمل في أفريقيا حيث الفقر، والجهل، والجوع، فيقومون بالتجارب على البشر وقد يغض العالم الطرفَ عن ذلك عندما يحدث في الدول الفقيرة!

- نعم منذ قرون كانت أفريقيا سوقاً للرقيق، والآن هي سوق لتجارب الدواء والفيروسات . هناك يتم صناعة الداء والدواء تحت نظر العالم وفى صمت مخجل للإنسانية كلها.

- عندما قمتُ بالبحث عن تلك الصور كنتُ أشعر بأن هناك أمراً مفجعاً ، ولكنى لم أتوقع أن الأمر بتلك القوة.

هناك أشياء غريبة يجب علينا أن نعلمها ونسأل بشأنها، وهي لماذا ألقى ذلك الرجل بالطفل هنا داخل واحة في صحراء في مصر؟ وما حقيقة تلك المعادلة المدونة؟ أهي جزء يخص تلك الفيروسات المخلقة في المختبر المنفجر أسفل تلك البناية الضخمة لمستشفى هي مجرد إخفاء الحقيقة للمشروع الأكبر والأضخم والأهم تحت باطن الأرض فما كان هذا المبنى سوى متخبر لتصنيع الفيروسات

الخطرة. في إحدى دول القارة السوداء حيث الفقر والجوع والمرض. والرجل الذي كان يحمل الصغير ما هو إلا عالم من ستة علماء ذوي جنسيات مختلفة، لم تشر وكالات الأنباء إلى هويتهم بدقة كما أن بعض المواقع المهتمة بحقوق الإنسان أشارت إلى أن المختبر يقوم بتصنيع الدواء.

ثم ابتسم في سخرية ، وأكمل حديثه قائلاً:

ـ ويقول أيضاً إن التجربة قد فُقدت مع أحد العلماء من المختبر أثناء انفجاره !

ثم سأل :

ـ ما التجربة ؟ أهي تلك المعادلة الناقصة التي بين أيدينا؟

- فقال أحد العلماء :

ـ إذا كانت التجارب على البشر هناك فبالتأكد التجربة !!!

ثم صمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير، وحدق بعضهم في بعض طويلاً خشيةً أن ينطق أحدهم فقد أصبح الأمر أخطر مما يظنون.

***

لم تكن تلك البقعة القاحلة التي اختارها هؤلاء الغرباء للتخييم من المناطق التي تشتهر بها صحراء مصر بسياحة السفاري بما تملكه من مناطق صحراوية وجبلية خلابة مختلفة الألوان والأشكال بالإضافة إلى وجود العديد من الواحات الرائعة الجمال التي تتخلل

الجبال توفر المتعة والمغامرات للسياح هواة رحلات السفاري ، مما جعل سياحة السفاري تنتشر في جبل سانت كاترين، جبل موسي، وواحة سيوة ، والصحراء البيضاء بالوادي الجديد، والواحات الداخلة والخارجة الزاخرة بالآثار والعيون المائية والآبار، والعين الساخنة ، حيث يهتم السياح بمراقبة الحيوانات في الصحراء، والطيور المهاجرة من مكان إلي آخر.

كما توفر شركات السياحة الخيام والمعدات اللازمة للحياة البدوية حتى يمكن للسياح معايشة هذه الحياة التي تجمع بين البساطة وقسوة الطبيعة الجبلية الصحراوية وأيضاً مشاهدة أنواع الحيوانات والطيور البرية المتميزة والنادرة داخل المحميات المتواجدة في هذه الأماكن.

بالإضافة إلى وجود العديد من الواحات الرائعة الجمال التي تتخلل الجبال كواحة فيران والمالحة كما تتمتع بنباتات طبية نادرة مثل الأعشاب وبعض الحيوانات والطيور البرية المتميزة والنادرة، أما أكثر الصحاري التي تتمتع بالروعة ، و تعتبر قبلة عشاق رحلات السفاري فهي صحاري جنوب سيناء في كثير من مناطقها لإقامة سباقات السيارات والدراجات. كما تحتضن نويبع التي تقع على بعد ٨٥ كيلومتر شمال دهب معظم البحر ، وبها أماكن عديدة لممارسة رياضيات الصحراء وركوب الجمال ورحلات السفاري والغوص. وكثير من الصحاري في الأماكن المختلفة ولا عجب بالطبع أن تحتل مصر المركز الأول في رحلات السفاري حول

العالم.

أما هذه المنظفة من الصحراء فلم يكن بها سوى بعض الكهوف الجبلية، وهو ما جعل كبير الواحة يشك في هؤلاء الرجال الغرباء ويتتبع أثرهم، وهاهو يرى مخاوفه حقيقة واضحة وراء هذه التلال البعيدة مسافة أقل من نصف يوم عن خيمتهم خلف الجبال وبالقرب من بعض الواحات الأخرى.

ونظر الرجل فهاله ما رأى كانت هناك ثلاث خيام مقامة وأيضاً ثلاث سيارات جيب سوداء ، فعلم أن لكل خيمة سيارتها الخاصة كما توقع أن يكون عدد الرجال لا يقل عن أربعة أشخاص بكل خيمة ؛ ولذلك فعدد الرجال بالإضافة إلى الثلاثة الآخرين يساوى خمسة عشر رجلاً.

ونظر الشيخ فوجد بعض الرجال الأشداء حول الخيام تختلف أشكالهم وألوانهم عن أهل الصحراء ببشرتهم البيضاء وعيونهم الزرقاء وشعرهم الأصفر ، ومنهم من تقترب بشرته وهيئاته مثل شعوب الشرق الأوسط ،وارتفعت دقات قلبه ، وتذكر المختبر الذى تحدث عنه دكتور منصور بأن علماءه من جنسيات مختلفة . وتساءل: أيكونون هم من يبحثون عن الفتى؟ ولكن أين كانوا طيلة السنوات الماضية؟

وانتظر قليلاً ليرى فتقدم أحد الرجال من الخيام الثلاث ، ثم خرج جميع الرجال اللذين كانوا بالخيام بعد ذلك ، كان الوضع أشبه باجتماع فيما بينهم، ولكن لم يكن العدد كما توقعه كبير الواحة بل

كان أقل من ذلك فلم يتعدوا جميعهم عشرة أشخاص.

ثم قال أحد الرجال ويبدو أنه قائدهم بلغة عربية سليمة:

ـ تأكدنا أن هناك ثلاث واحات فقط هي أقرب الأماكن لتلك الخريطة التي وجدت مع «جاكوب» حين ألقي الطفل منذ سنوات في تلك البقعة من الصحراء حتى أضنانا البحث سنوات طويلة في الصحراء ووصلنا إلى هذا المكان فهو أقرب الأماكن (علم الشيخ المنتبه وراء التلال أن اسم جاكوب ما هو إلا اسم يعقوب باللغة العبرانية فشك في جنسيته فكما قالت من قبل وسائل الإعلام عن الانفجار علماء يصنعون الدواء!

وابتسم في سخرية وقال :

ـ وهل يصنع العدو الدواء لعدوه كما تأكد أن الذي ألقى الطفل في تلك البقعة يعلم الكثير عن صحراء مصر كما تأكد أن ذلك الفتى المسكين لم ينقذه سوى ذئب كان ينتظر التهامه كاملاً ، ولم يكن شخصاً يحمل قلباً كبيراً يقوم بإنقاذ طفل أفريقي من النيران كما صورت الأمر وسائل الإعلام من قبل.

وأنصت الرجل فقال أحد الرجال حول المخيم :

ـ ولكن جاكوب قد لقى حتفه منذ سنوات متأثراً بجراحه. كان يريد أن يستولي على التجربة وحده دون أحد آخر ، ولكن الدكتور لم يسمح بذلك .

فنظر إليه رجل بالقرب منه بحدة وقال :

ـ جاكوب لم يكن ينوى ذلك بل كان يريد إنفاذ التجربة بعيداً عن المكان حين وقع الانفجار!

وارتفع صوت الرجلين حتى بات أن هناك شجاراً قد أوشك الحدوث بينها ، فصرخ قائدهم قائلاً :

ـ كيفين – ديفيد ، اصمتا فوراً لم نأتِ هنا كي نتشاجر ، بل نحن هنا في عمل .

فصمت الرجلان في قلق تجلى فوق وجهيهما ثم التزم كلاهما الصمت التام لنهاية الاجتماع الغريب ، وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال :

ـ من الأسماء يتضح الكثير ، فهاهو ديفيد الذى يعنى داود إذا صاحب جاكوب يدافع عنه ! وأياً كانت الصلة بينهما. ثم كيفين وأعتقد أن هذا الاسم ينتشر بكثرة في أمريكا، وهاهو القطيع يزأر عند تقسيم الغنائم.

وتابع الرجل الأجنبي يعطى الأوامر، وقال:

ـ سيذهب مع رجال الكشافة ثلاثة رجال حتى يكون العدد ستة وأنا معهم تنقسمون بين الواحات الثلاث ، والتجسس عن هذا الفتى الذي هو مميز حيث يحمل البشرة الأفريقية السوداء كي نختصر وقت المهمة سريعاً. وكما تعلمون الأوامر هي في حالة سقوطكم في خطر ما تقولون إنكم ضللتم المجموعة الخاصة برحلة السفاري في الصحراء ونبحث عن دليل كي نصل إليها. أما باقي الفرقة

فتظل كما هي في المخيم تحرس الأسلحة والطعام وتبقى على أهبة الاستعداد .

ولم يكن جلب الأسلحة بعسير ، فأقوى الأسلحة أصغرها حجماً ، ولن يكونوا في حاجة لكثير من السلاح ،في مواجهة أهل الصحراء الذين لا دراية لهم بتلك الأسلحة المتطورة ، ومازالوا يعتمدون على الرمح والسيف. ثم قال :

لا نريد أن نثير الشكوك حولنا حتى تنتهي مهمتنا في خطف الفتى في صمت والعودة به حيث ينتظر العلماء هناك في أفريقيا حيث شُيِّد مكان المختبر مختبرٌ آخر ، وفوقه نفس المستشفى لتخدم أهل البلد الفقير .

وابتسم ساخراً وقال:

ـ نتمنى أن لا نفقد التجربة هذا الوقت فهي تعني الكثير الآن.

وانطلق الرجال الستة إلى حيث الخيمة القريبة من الواحة دون استعمال سيارة ، وأتقنوا الأمر كأنهم سائحون مفقودون في الصحراء فكان بين المخيم الكبير وبين خيمتهم مسافة ثلاث ساعات ، أو أكثر قطعوها سيراً على الأقدام قبل أن يتبعهم قائدهم .

همس في أذن أحد الرجال قائلاً:

ـ حين نتأكد من وجود التجربة تخلص من هؤلاء الحمقى ، وقم بتفجير سيارتهم وهم فيها ، واعمل على ذلك من الآن في سرية تامة حتى يبدو الأمر بعد ذلك إذا سئلنا عنه نقول وقع حادث

وانفجرت السيارة .

وانطلق يتبع رجال الكشافة حيث خيمتهم ، وتعجب الشيخ من سلوك البشر الذى يقدم أحدهم على قتل الآخر، أو خيانته بهذا الهدوء الغريب .وشكر الله أن واحتهم الصغيرة في تلك الصحراء القاحلة لا يحمل أهلها تلك القلوب السوداء .

وتذكَّر الشيخ الأسماء التي سمعها منذ قليل ، ورددها أكثر من مرة محاولاً ألا ينساها فهذه الأسماء قد تعني شيئاً ، فكان يجب أن يرسلها إلى الدكتور منصور سريعاً كي يقوم بالبحث عنها فقد يكون ورائها الكثير.

وتأكد أيضاً في تلك اللحظة أن الفتى بات في خطر كبير ، وكذلك أهل الواحة. فهبط سريعاً تلك التلال ، وعاد من حيث أتى فقد كان هو الآخر على موعد لاجتماع عاجل وخطير.

الفصل التاسع

وقبل الفجر انطلق فارسان من أمهر فرسان الواحة عبر الصحراء في دروب لا يعلمها إلا أهلها بعيداً عن عيون الغرباء وخيامهم تضرب سنابك حصانيهما بقوة الرمال وكأنها تستعدي جند الصحراء من العواصف والرمال استعداداً لهذا القادم بالغدر على أرضيهم ليغتال أمانهم.

في طريقهما حيث فيلا الدكتور منصور يحملان في رأسيهما وعقلهما الأخبار الهامة ، التي لابد من إرسالها سريعاً حتى يعلم منصور ما يدور داخل الواحة وداخل الصحراء في ذلك الوقت.

أما كبير الواحة فكان على لقاء هام مع عظماء الواحة، وأشرافها وأهله من الواحات القريبة التي قد تكون مسرحاً للأحداث اللاحقة فكان لابد من توطيد المعلومات والاستعداد جميعاً في وقت واحد لهذا العدو الغريب.

لم يكن اجتماعهم كالاجتماعات السابقة في الساحة الكبرى وتحت سقيفتها ، ولكن هذا الجمع جمع مختلف لمناقشة موضوع

خطير لم يمر من قبل على أهل الصحراء.

واجتمع الرجال بداخل خيمة كبيرة اقتربت من النبع ، وعلى رأس المجلس جلس صاحب الخيمة كبير الواحة وسيدها لمناقشة ما يدور على أرض الصحراء من أمور خطيرة .

واشرأبت إليه الأعناق وحدَّقت نحوه الأبصار ، أما هو فلازالت علامات القلق على وجهه منذ ليلة أمس. ثم فقال:

ـ أعلم أنكم تتساءلون، وسأشرح لكم كل شيء ، ولم جمعتكم اليوم ؟ فالأمر خطير.

هل تذكرون منذ سنوات أثناء مولد ابنتي هند. كانت كل العشائر تحتفل معنا داخل الواحة، وقد حدث في ذلك اليوم شيء غريب، أتذكرون ذلك الشيء ؟

تعالت بعض الأصوات وقالوا:

ـ نعم ذلك اليوم لا ينسى إلى اليوم. وكيف يُنسى ؟ وصاحبه زين بيننا، وقد أصبح واحداً من أبنائنا ؟

فقال كبير الواحة :

ـ ومضت السنوات ، ومَن ألقى بالصغير هنا لم يرجع للسؤال عنه ، ونسينا هذا الأمر ، وشبَّ الصغير بيننا فأصبح من أمهر الفرسان وأعظمهم خلقاً .

فصاح أحد الجالسين يخاطب سيد الواحة ، وقال:

- وكيف لا يكون ذلك ؟ وقد نشأ في رحابك واتخذته ابناً لك ؟

وتعالت البسمات بين الجميع إلا شيخ الواحة كأنه لم يمر على سمعه شيء مما قيل، وأكمل حديثه قائلاً :

- ولكن منذ أيام حدث شى ء غريب ..

واستطرد الرجل يحكى ما كان من أحلام الفتى وذهابه للدكتور منصور إلى أحداث ليلة أمس. والجميع منصت في ذهول ورعب بين مصدق وغير مصدق أن تلك الأحداث قد تدور في صحراء بعيدة عن مقومات الحضارة بالمدن القريبة ومع بساطة الحياة إلا أنهم سعداء بمجتمعهم النائي بعيداً داخل الصحراء .

ولم يتوقع أحد في يوم من الأيام أن تكون بيئتهم الهادئة مسرحاً لأحداث كهذه ، فقال أحد الرجال مما يبدو عليه الحكمة والعلم، وقد كان أكبر سناً من كبير الواحة:

- يا بني نعلم جيداً أن ما تقوله حقاً كما نعلم عنكَ علمكَ، وحكمتكَ في إدارة شئون الواحة كما كان آباؤك، وأجدادك. ومادام الأمر بهذه الخطوة ، لذلك اقترح أولاً : إخفاء الفتى فهو من يبحثون عنه.

وقال آخر :

- ولكن كل الواحات القريبة تعلم بأمر الفتى، وإذا سأل الغرباء أي أحد سيجيب، ولا نعلم أي الواحات التي وقع عليها اختيارهم، ومن سيسألون فيها؟

وتعالت الأصوات ، كلٌّ يدلي بأفكاره ، وكبير الواحة يستمع باهتمام ، وبجواره زين ينصت كذلك. ثم صمت الجميع فقال كبير الواحة:

ـ ثمة نقطة هامة يجب أن نلتفت إليها ، وهي : من يبحث عن الفتى ليسوا أهله ، لعلهم علماء أو تجار بشر، فلايعنيهم الفتى في شيء بل يعنيهم شيء يعرفه الفتى هو ما يبحثون عنه قد تكون الأوراق التي وجدت معه؟ أو أي شيء آخر قد لا نعلمه؟

فقد سمعتهم يضعون الخطط لخطف الفتى في هدوء. وهذا ما سنفعله أيضاً !

ونظر كبير الواحة إليهم ثم ابتسم ،وتعالت مرة أخرى الأصوات تسأل :

ـ كيف نخطف ما نملك؟

فقال الشيخ:

ـ تعلمون جيداً أن من الصعب الاجتماع بأهل كل الواحات القريبة وتحذير أهلها من الإدلاء بمعلومات للغرباء ؛ فهذا الأمر سيثير الشكوك والريبة ، وأيضاً سينشر الفزع بين الناس . هذا الأمر وحده سيثير الشكوك لدى الغرباء في أننا قد علمنا بأمرهم وقد يتطور الأمر إلى استعمال السلاح ، ونحن لا نعلم أى الأسلحة معهم هل بنادق، أو أسلحة مما يصنعون في السر لإهلاك الشعوب وابتزازها.

ثم أكمل :

ـ سندع الغرباء يسألون بين الواحات التي وقع اختيارهم عليها والناس ستجيب عليهم وتدلهم دون وعى إلى هنا. وهنا سنكون في انتظارهم. فعددهم لا يزيد عن عشرة رجال سنتابعهم جيداً بقصاص الأثر، ونراقبهم جيداً ؛ لنعلم هل سيكمل زعيمهم خطته كما سمعتها من قبل؟ وهي التخلص من بعض الرجال. فإذا فعل ذلك نرى كم من الرجال سيقتل، وكم تبقى لديه. فإذا حانت اللحظة كنا بانتظاره سيراقب الواحة لخطف الفتى. الذي لن يجده بيننا!

فتساءل الجميع :

ـ كيف لن يكون بيننا؟

فقال:

ـ ترى لو أنكم مكان زعيمهم ماذا سيفعل حتى يجد ما يبحث عنه منذ سنوات، وخصوصاً إن كان يريد أن يبقى الأمر هادئاً ؟

فقال أحدهم :

ـ سيذهبون لكبير الواحة للسؤال عن الفتى وسيزعمون أنهم من أهله أو معارفه أو شيئاً من هذا القبيل ، وأنهم أهله يشتاقون لرؤية طفلهم ، وهكذا سيؤلفون حكاية متقنة تقص عليك.

فقال الرجل :

لا يا أخى قد خانك التقدير. هؤلاء القوم لا يعملون هكذا. قطعاً سيحضرون إلى خيمتي ، ولكن بداخل الخيمة سأكون تحت

سلاحهم وابنتي أيضاً ليحصلوا على غايتهم بالقوة كما هي عادة هؤلاء القوم. هل تظن من يقوم بصناعة قتل البشر يستعصي عليه أن يقتلهم بيده ؟ هؤلاء أحفاد تجار البشر.

وذهب بخياله بعيداً حيث يضرب الفارسان رمال الصحراء بقوة جوادهما تحت الشمس الملتهبة التي لم يشعرا بلهيبها المتقد على الرمال الصفراء ، فقد كانا يسابقان الوقت دون كلل أو توقف حرصاً على إتمام مهمتهما بأسرع وقت وتسليم المعلومات الجديدة إلى الدكتور منصور.

ثم قال كبير الواحة :

ـ عند وصول الرسل إلى منصور بعد يوم ونصف من الآن ، سأقول لكم ماذا سنفعل بعد ذلك ، ولكن إلى الآن يجب أن نتتبع أثر هؤلاء الغرباء لمعرفة خطواتهم جيداً ؟ وهل هم فقط المتواجدون بالصحراء؟ أم هناك أناس آخرون خارج الصحراء في انتظارهم؟

ودفع سادة القبائل برجالها الشجعان ومتتبعي الأثر في الصحراء فكانوا جميعاً تحت قيادة شيخ القبيلة ، وانطلق كلٌّ منهما إلى واحته في انتظار اجتماعهم القادم بعد يوم ونصف كما حدد كبير الواحة.

ودفع الرجل في عجالة بخطته فأرسل ببعضهم إلى أعالي الجبال والسهول ليتخذ الواحد منهم من رعى الأغنام ستاراً له بعيداً عن مهمته الرئيسة في مراقبة تحركات الغرباء وآخرين يقومون بتتبع الأثر لمعرفة كم عدد من تحرك منهم ، وفى أى الأماكن قد ذهب.

كانوا جميعاً فريقاً متناغماً مترابطاً يعمل في سلاسة وسرعة وقوة ، فتلك بيئتهم منذ آلاف السنين ، وهنا امتزجت الرمال بدمائهم وعرقهم حتى ألفتهم الطبيعة حولهم ؛ فكانوا جزءاً منها ، وكانت جزءاً منهم ، تمدهم بالقوة ، وتأبى هزيمتهم أمام الدخلاء.

أما كبير الواحة فلم يبرح حجرته، وافترش أوراقه وكتب الأجداد في محاولة لتجديد معلوماته عن التخاطر خوفاً منه أن يكون قد نسى استعمال بعض المعلومات مع مرور الزمن .

كان يحاول ألا يخطئ في شيء استعداداً لما هو آت . أيضاً كان يحاول معرفة الذي يحاول اختراق ذاكرة الفتى من الغرباء، ولكن في خفاء تام دون علم ذلك الشخص. الذي وصل من قبل لعقل الفتى في صورة أحلام مشوشة لم تمكنه من الوصول إلى أهدافه كاملة ، واستطاع هو أن يخفيه مرة أخرى بعيداً عن ذلك الدخيل المجهول، ولكن إلى متى؟ وكيف له أن يستمر في ذلك؟

وتساءل الشيخ لماذا لا يتذكرهم الفتى؟ ولماذا فشل تخاطرهم الأول معه والذي جاء في صورة من الكوابيس حيث استغاث به منذ أيام ولم يعلم الحقيقة حينها؟

وجحظت عيناه بفكرة مجنونة؟ فهل سيكون قادراً على المخاطرة وتحقيق هذه الفكرة؟ وأخذ يفكر ماذا سيفعل؟ ثم توقفت أفكاره مرة أخرى حيث الفارسين ؛ فقد كان وصولهما إلى منصور سيحدد الكثير مما سيقوم به لاحقاً وهاهي شمس اليوم الثاني قد اقتربت من المغيب ، ولم يتبق إلا منتصف اليوم ليكون الرسل على أعتاب

فيلا منصور.

***

تعمل الواحة على قدم وساق في تتبع أثر الغرباء، ويعمل منصور وفريقه البحثي من العلماء على أحر من الجمر يسارعون الوقت ويسابقون الزمن فقد توصلوا إلى أمر خطير، وفى مساء اليوم لم يتنسَ لأحدهم مغادرة المكان والرجوع إلى بيته لنيل قسط من الراحة حتى أعدت الخادمة طعام العشاء واستلقى كلٌ على أريكة لحظات قليلة لالتقاط أنفاسه، ومازال الحديث لم ينقطع بينهم في الموضوع نفسه نصف ساعة فقط وكانوا مرة أخرى داخل مختبر فيلا منصور ذلك المختبر الذى يقوم فيه بعمل دراسات شخصية.

وأمام شاشات الكمبيوتر وفوق مائدة صغيرة توسطت المكان تناثرت عشرات المجلات والجرائد القديمة والأوراق التي يُدوَّن بها العلماء كل معلومة يصلون إليها، ثم قال منصور:

ـ إذا فالفتى ليس إلا تجربة كانوا يقيمون عليها في أفريقيا، ولما انفجر المختبر وسارع العلماء للحفاظ على التجربة، تداولت وسائل الإعلام هذا الإنقاذ على أنه عمل بطولي لا إنقاذ طفل أفريقي.

فضحك زميل الدكتور منصور ساخر وقال:

ـ كان يقوم بإنقاذ عمله فقط!

وقال أخر:

ـ تم دراسة اختبارات الفيروس على الصغير وتم صناعه الدواء

أيضاً تلك القصاصات التي وجدت مع الطفل التي جلبها عمك تقول ذلك، ولكنها ناقصة بعض الأرقام والأحرف .فإذا تواجدت أو تم الوصول إليها كان لدينا طريقة تصنيع دواء لفيروس من أخطر الفيروسات وقد يكون ما نوهت عنه بعض الحكومات سابقاً .

فقال منصور :

ـ الحرب البيولوجية !

والتقط صديقه الحوار فقال :

ـ من قبلُ كان تجار البشر يتخذون من أهل أفريقيا عبيداً لهم واليوم أحفادهم يتاجرون بالبشرية كلها وحياة الإنسان ومن يريد النجاة عليه أن يدفع الثمن !

فقال منصور :

ـ ولكن كيف لنا الوصول للأرقام الناقصة في تلك المعادلة .

ثم ضحك وقال:

ـ إذا توصلنا لذلك سيكون لدينا سلاح رهيب .

فقال زميله :

ـ وقد يكلفنا ذلك حياتنا جميعاً وحياة آخرين عندما يتعلق الأمر بالمال يكون الأمر خارج نطاق السيطرة وخصوصاً مع هؤلاء المافيا مافيا البلاء والدواء.

فقال منصور :

ـ يبدو أن الأمر سيكون .....

ولم يكمل حديثه فقد دق جرس الباب، وأسرعت الخادمة لتقول لسيدها :

ـ هناك سيدان من الواحة بانتظارك في الخارج.

واندهش منصور فقد كان الوقت متأخراً جداً لوصول أحدهما، وانطلق إلى الخارج ليرى من القادم ، فتقدم الفارسان من منصور وقال أحدهما :

ـ لم نستطع أن نريح خيولنا إلا دقائق قليلة محاولة منا لسباق الوقت ، فهناك رسالة خطيرة من كبير الواحة يجب أن تعلمها يحملها زميلي.

واقترب منصور من الفارس الملثم ، ونظر إليه ؛ فخلع الفارس لثام وجهه فجحظت عينا منصور من الدهشة وقال :

ـ أنت؟ كيف؟

وهوى جسده على مقعد قريب من المفاجأة التي كانت بانتظاره؟

***

هبَّ الشيخ من نومه قبل شروق الشمس وقد ابتسم وانفرجت أساريره وقال :

ـ حمداً لله ، لقد وصل الفارسان إلى فيلا منصور قبل ميعادهما

بنصف يوم .

ثم أشفق عليهما وقال :

ـ يبدو أنهما لم يستريحا في الطريق إلا دقائق قليلة ، ولكن ها قد وصلا بالسلامة فلنبدأ العمل فور استيقاظهما من النوم.

وأخذ يدور بعض الوقت داخل حجرته يخفى تراث الأجداد حقاً هو يعلم أكثر مما تحمله الكتب والمخطوطات، ولكن إذا توصل هؤلاء لعلم أجداده سيسرقونه كما فعلوا من قبلُ ، ثم ينسبون هذا العلم لحضارتهم، لا ، لن يسمح لهم أن تمتد أيديهم لعلوم بيئته. الغرباء إذا ما وصلوا إلى خيمته سيدمرون كل شيء حتى لا يبقى إلا علمهم وعلماؤهم. نعم الفرقة الاستكشافية من أبناء الواحات المختلفة قد أمدته أمس بمعلومات بحثهم بين الواحات فقد بحثوا ببعض الواحات القريبة ولم يتبق سوى واحة واحدة وواحته هنا وهاهو في انتظارهم.

***

وانتصف النهار واستيقظ الفارسان من نومها وعلى مائدة الغذاء جلس بجوارهما دكتور منصور فقال :

ـ ولكن يا هند ، كيف لعمي كبير الواحة أن يتركك تسافرين دونه ؟ هذه المرة الأولى التي نسمع بها عن فتاة من الواحة ترتدي رداء الفرسان وتنطلق في الليل عبر الصحراء والجبال ، لقد صعقتُ حين كشفتِ عن وجهكِ؟

فابتسمت هند وقالت :

ـ يا دكتور ،لم أكن وحدي ، بل كان برفقتي فارس فرسان الواحة وابن عمومتنا ، وأيضاً السبب الرئيسي الذي أتيت من أجله أن المعلومات التي أرسلها أبي لم تكن معلومات مكتوبة كما قصصتُ عليك بالاسم ذلك الغرباء وما سمعه أبي منهم وما يريدونه ، فخاف أبي أن تقع هذه المعلومات في يد غريب عبر سفرنا لذلك أنا الوحيدة التي كنت أستطيع الاحتفاظ بكل تفاصيلها حيث عشتها مع أبى وزين لحظة بلحظة .

فقال دكتور منصور:

ـ نعم يا هند ، حسناً فعل عمي أن يرسل المعلومات هكذا غير مكتوبة !

ولكن هند استرسلت في حديثها قائلة:

ـ والأهم لم تسمعه بعدُ يا دكتور حتى أذن لي أبي صباح اليوم أن أبوح لكَ به بسبب وجودي هنا اليوم .

فقال منصور :

ـ أو تحدثتِ مع أبيكِ عن طريق التخاطر؟

- نعم فعلتُ ذلك صباحاً قبل بزوغ الفجر .

- ولكن ما الجديد؟

- قبل أن تعلم الجديد يجب أن أقول لك إني سأبقى هنا معك عدة

أيام حتى ينتهي الأمر.

-هل يخشى أبوكِ عليكِ إيذاء الغرباء إذا ما وصلوا إلى الواحة؟

ضحكت هند وقالت:

ـ وهل فتيات الصحراء يُخشَى عليهن من هؤلاء؟ لا، بل حتى يتم التواصل بيني وبين أبى في إرسال واستقبال المعلومات منه إليك ، أو إليك منه ، فكما تعلم الأمر أصبح خطيراً ، ويجب أن يتم التواصل فيما بينكما بجديد المعلومات.

اندهش منصور من حكمه الرجل وقال:

ـ نعم أحسن عمي إرسالك ، فلدي الكثير من المعلومات الخطيرة أيضاً تم التوصُّل إليها ، وقدَ يكون الفتى في خطر داهم هناك.

ولكن يا هند أستطيع أن أوصلكِ بالسيارة في ثلاث أو أربع ساعات إذا أردتِ الوصول إلى الواحةَ.

- يبدو أنكَ نسيت ياد كتور ، دروبنا الوعرة فعند ملتقى الجبال لن تستطيع استعمال السيارة ، وستضطر إلى تركها واستعمال وسائلنا في السير كي نتمكن من بلوغ الواحة ، وهنا لن تقل هذه المسافة عن يوم كامل.

- نعم ياهند. إذاً بعد طعام الإفطار تتواصلين مع عمي لمعرفة متى أرسل له ما لديَّ من معلومات ، سأخرج الآن إلى الحديقة لضيافة بعض الزملاء الذين نعمل معاً على هذا الموضوع.

وخرج منصور مسرعاً إلى الحديقة ليرى أن أحد الزملاء قد أتى

بالفعل على وجهه علامات التوتر والقلق. ولم يدع منصور يقوم بسؤاله عن سبب هذا التوتر ولكن بادره سريعاً فقال:

ـ انتظر يا دكتور منصور دقائق، وسيصل كل الزملاء، وستعرف كل شيء.

كان هذا الرد كفيلاً بأن يصيب التوتر والقلق منصوراً، ويتساءل بينه وبين نفسه ترى ماذا حدث؟ وهل من جديد؟ فهو لم يترك زملاءه سوى ليلة أمس حين استقبل الفارسين الآتيين من الواحة ابن من أبناء عمومته وهند بنت كبير الواحة؟

لم يمضِ كثير من الوقت إلا واندفع باقي العلماء العاملون معه على هذا البحث عبر الحديقة، وبسرعة تناول أحد العلماء الأجندة الخاصة بتدوين الملاحظات وقال:

ـ دكتور منصور، تعلم أننا توصلنا من قبل أن المختبر المنفجر في أفريقيا يخص تصنيع الفيروسات، وأن الأبحاث كانت تقام هناك ولكن سؤالنا الأهم الذي دار بيننا ليلة أمس قبل أن تتركنا لضيوفك، ماذا يفعل طفل صغير داخل المختبر؟ وتوصَّلنا أيضاً أن الصغير هو جزء من التجربة، لكننا لم نع أي تجربه؟ إلى أن تركتنا فحاولنا أن نعمل عكس استنتاجنا السابق حتى توصَّلنا إلى شيء خطير بخصوص الأرقام والأحرف الناقصة.

انتبه منصور جيداً وقال:

ـ وما هو يا دكتور؟

فقال:

ـ آخر الأرقام الناقصة لا تخص صناعة الترياق ، بل تخص صناعة الفيروس نفسه.

جحظت عينا منصور من الدهشة والرعب وقال :

ـ هل؟

فقال :

ـ نعم؟ نحمل بين أيدينا تجربة صناعة فيروس كاملة لا ينقصها سوى عدة أرقام وحروف.

فقال منصور:

ـ إذاً هم يملكون الدواء ، ويريدون إطلاق الفيروس.

ثم قال: ليس الفتى وحده في خطر ، بل الواحة كلها ! ماذا سنفعل؟

يجب أن أخبر عمي حالاً كي يخفى الفتى بعيداً. ثم انتبه وقال:

ـ إذا كانوا يملكون الدواء ، ويريدون تلك القصاصات الورقية فهم يبحثون عن عمي ولا يهمهم الفتى؟ فلماذا يريدون خطف الفتى؟

قال أحدهم:

ـ يبدو أن الفتى يحمل السرَّ يا دكتور!

- الموضوع أصبح خطيراً فعلاً . ماذا تقترحون ؟

قال دكتور منصور :

ـ الأمر أصبح أمناً وطنياً ، يجب أن نُعلِم الجهات المسئولة بما يدور حتى لا تُوجَّه إلينا تهمه إخفاء معلومات.

فقالو جميعاً :

ـ نعم .

وجمع العلماء أوراقهم وانطلقوا جميعاً ، وقد اتخذوا قرارهم إلى حيث مبنى المخابرات العامة .

الفصل العاشر

أخذت هند تعدو في غرفتها ذهاباًوعودة في حالة من التوتر ، فقد كانت على موعد مع دكتور منصور منذ لحظات ؛ ليدلي لها ببعض المعلومات الهامة كما قال لإرسالها إلى أبيها عبر التخاطر، ولكنه اختفى ولا تعرف إلى أين ذهب؟ أو متى سيعود؟ وها هي تنتظر في قلق وحيرة ، وأخذت تتساءل :

ـ ألم يعلم دكتور منصور أن الوقت يداهمنا ، وأن هناك خطراً ينتظر الجميع بالواحة؟ فترى أين ذهب؟

لم تدرِ حينها أن الدكتور منصور يجلس الآن وزملاؤه من العلماء داخل مبنى المخابرات العامة في انتظار أحد المسئولين للتحدث معه في قدسية بالغة فقد كانت تلك المرة الأولى التي يدخلون جميعاً هذا المكان الذي يثير الرعب في قلوب الأعداء .

ولم يمض على وجودهم في هذا المكان المنضبط سوى دقائق قليلة حتى دخل أحد العاملين قائلاً :

ـ تفضلوا حضراتكم .. سيادة العميد في انتظاركم .

وانطلق العلماء خلف الرجل حيث حجرة سيادة العميد الذي استقبل الجميع بترحاب وابتسامة ودودة ؛ فهدأت نفوسهم بعض الشيء من جميل الاستقبال، لكن الغريب في الأمر أن سيادة العميد قد ترك مكتبه ، وجلس على رأس منضدة اجتماعات احتلت ركناً كبيراً في إحدى أركان الغرفة، ثم طالب الجميع بالجلوس. نظر بعضهم إلى بعض ، فكأن هذا المكان فعلاً ما يحتاجونه لنشر مستنداتهم ، وأوراق بحثهم وكانوا في حيرة : كيف يمكنهم وضع كل هذا الكم من الأوراق التي لديهم؟

ابتسم سيادة العميد وكأنه قرأ أفكارهم ، ثم قال :

ـ أهلا بعلمائنا الأجلاء.

فقال الدكتور منصور :

ـ سيادة العميد نعتذر أولاً أن تأخرنا بعض الوقت في الإبلاغ عما لدينا من معلومات لم نكن نعلم أن بهذه الخطورة.

واسترسل العلماء في شرح ما لديهم من معلومات منذ حضور كبير الواحة إلى الآن ، ونتائج أبحاثهم حول هذا الموضوع.

كان سيادة العميد في غاية الاهتمام بالأمر ، ويصغي تماماً لكل حرف وكلمة تقال ، وأخذ يدوِّن أمامه بعض الملاحظات بقلم أحمر اللون إلى أن انتهوا جميعاً من الإفضاء بكل ما لديهم من معلومات. فقال سيادة العميد :

ـ ولكن يا دكتور منصور لماذا لم يحضر معك كبير الواحة؟

فقال منصور :

ـ هو لم يعلم إلى الآن ما توصلت إليه لكنه أيضاً بالواحة يقاوم خشيه ان تصاب حياة الفتى أو أهل واحته بشيء خطير مع وجود هؤلاء الغرباء ولا نعلم إلى الان ما يحملون من أسلحه أو نوعها؟ ابتسم سيادة العميد وقال:

ـ أولاً إذا تأخرتم فعلاً عن هذا الوقت في الإدلاء بهذه المعلومات الخطيرة لوقعتم جميعا تحت طائلة القانون. وأحب أن أوضِّح لحضراتكم أن الأمر تحت السيطرة.

فشهقوا جميعا وجحظت عيونهم ، فقال سيادة العميد :

ـ هل تظنون أن أحداً من قبل اخترق سماءنا أو أرضنا؟ منذ اللحظات الأولى من إلقاء الطفل ونحن نتابع الأمر عن كثب. أولاً: لم تكن تلك الطائرة تريد إلقاء شحنتها بأرضنا ؛ فهي طائرة خاصة عابرة من أفريقيا لإحدىالدول القريبة منا وقد أخذت أذن المرور ولكنها انفجرت على حدودنا فما كان من قائدها إلا أن ألقى شحنته داخل أراضينا . أما مواطنو هذا الطائرة فكان أحد العلماء العاملين بأفريقيا في ذلك المستشفى المنفجر هناك كما تداولت وسائل الأعلام هذا الحادث في ذلك الوقت وبالتحقيق في انفجار الطائرة وموت الطيار أثبتت التحقيقات أنه عطل فني.

ولم يتطرق أحد لوجود مفقودات من الطائرة، وانتهى الأمر

الظاهري عند هذا الحد. أما بعد ذلك فقد تتبعت أجهزتنا ما ألقي داخل أرضينا.

وتم تحديد المكان ، وفى طريقنا إليه كان كبير الواحة في طريقه لإبلاغ الشرطة أيضاً ليطلعنا عما ألقي بواحته النائية، ولا أنكر فقد كانت مفاجأة كبيرة لنا جميعاً حين علمنا نوع الشحنة التي ألقيت ، فما هي إلا طفل صغير بمهده ورقة صغيرة كتب عليها ، وصرخ منصور :

ـ ابحث عن الختم !

فجحظت عيون الجميع من رد الفعل العنيف للدكتور منصور الذي اعتذر ، وجلس في هدوء ، ولكنه كان يبتسم بين الحين والآخر في انتظار أن ينهي سيادة العميد حديثه . فقال:

ـ نعم كما قال الدكتور منصور ورقة صغيرة طويت بعناية بالغة كتب فيها أبحث عن الختم ولم نعلم أى ختم؟ ولا في أي مكان يكون؟ ولم نعلم إلى الآن تفسيراً لهذا الورقة . وقد بحثنا في أغراض الصغير ولم نجد شيئاً ذا أهمية ، كما أننا لم نأخذ شيئاً من هذا الأغراض منعاً للشكوك ، وأيضاً في انتظار من سيقوم بالبحث عنها ، وتركنا كل شيء كما هو في رعاية كبير الواحة.

لكنا كنا على يقين أن هناك شيئاً ما ،وزرعنا عيوننا في كل مكان في الصحراء ، وتعاون معنا كبير الواحة ووضع الطفل تحت أعيننا كل الوقت فقد كنا على علم أيضاً من أين جاء الطفل ؟ ومن ألقى به ؟ وماذا كان هناك تحت مبنى المستشفى بباطن الأرض؟

كنا على علم من عيوننا في الداخل والخارج بأن الأمر خطير، أمر يخص الحروب البيولوجية. وتأكد لنا هذا الأمر الخطير عند حملة تطعيم الأطفال.

فنظر بعضهم إلى بعض ، وتساءلت العيون في صمت إلا دكتور منصور الذي قال في استنكار :

ـ حملة تطعيم الأطفال؟

فقال سياده العميد :

ـ نعم يا دكتور أنتَ تعلم أن مجتمع الصحراء مجتمع صغير ولا نريد أن نثير الشكوك فيما نقوم به على تلك القضية وسأشرح لحضراتكم بالتفصيل ..عند حملات تطعيم الأطفال تُرسَل سيارات من الصحة مجهزة لتلك المناطق النائية فتقوم بتطعيمات الأطفال ثم تعود مرة أخرى إلى المستشفى حتى نتأكد في وجود كبير الواحة عدم تسرب أى من الأطفال من أخذ التطعيمات ، وهنا حانت الفرصة اتفقنا مع كبير الواحة أن يكون زين آخر طفل يقوم بأخذ التطعيم ، وداخل السيارة المعدة لذلك تم سحب عينة من دماء الصغير بمعرفة علماء مختصين قائمين على هذا القضية لوضع إجابات لشكوكنا حول الصغير .. ثم كانت المفاجأة الذي لم يتوقعها الجميع.

***

كان هناك بداية لصراع داخل أرجاء الواحة فقد وصل هؤلاء الغرباء بحثاً عن صيدهم الثمين ، وقد تأكدوا تماماً من وجود الفتى هنا في تلك الواحة ، ولم يعلم أي منهم أن هناك الكثير من العيون

تترقبهم ، وتتبع أنفاسهم في صمت تام.

وانطلق ثلاثتهم بسوق الواحة يتناولون المنتجات اليدوية في شغف مثل سائحي رحلات السفاري تماماً الذين تستهويهم الصناعات اليدوية للبيئة الصحراوية فيقبلون عليها بشدة. ولكن كان كبير الواحة على يقين أن هؤلاء ليس مشترين، ولكن عيونهم تبحث عن بضاعة أخرى في كل مكان بالواحة. ومضى الوقت حتى اقتربت الشمس من المغيب جابوا أرض الواحة وكأنهم سائحون ولكن عيونهم تترقب وتتفحص وجوه الجميع .

وانتظر كبير القبيلة، وكما علَّمته الصحراء الصمتَ والصبر انتظر ليدخل الصيد شباكه في هدوء تام ، ولم يمض الكثير من الوقت حتى كان بخيمة الشيخ أحد عيونه يتتبع باقي المجموعة وهل تخلص منهم زعيمهم كما قال ؛ فعلم أن الأمر لم يتم ، ومازال أفراد المجموعة هناك بجوار الخيام ، ثم أشار للرجل بالانصراف ، ومتابعة عمله فلم ينتهِ الأمر بعد ... وأخذ يتساءل في عصبية :

ـ أين ذهب منصور الآن؟

***

قال سيادة العميد: كانت المفاجـأة التي لم يتوقعها الجميع عند تحليل دماء زين كما أطلق عليه كبير الواحة وإن كان اسمه الحقيقي في المختبر الأفريقي هو (التجربة ٧٧) .

فجحظت عيونهم مرة أخرى وقال أحد العلماء:

ـ وكيف توصلت إلى هذا سيادة العميد ؟

فقال:

ـ عندما يمسُّ شيء أمن وطننا لابد أن نعلم عنه كل شيء، ولدينا رجال شجعان في كل مكان.التجربة (٧٧) ما هي إلا ترياق للفيروس.

أخفى العالم الذي انفجر بالطائرة ، ونعلم تبعيته لأي الدول هو يعمل قام بإخفاء الدواء في دماء الصغير ، ثم حاول الهرب والحصول على كل المعلومات التي احترقت معه بالطائرة ثم فجَّر المختبر للتخلص من باقي العلماء كي يبدو الموضوع كحادث ولكن بعضهم قد نجا ، وانكشف الأمر بعد ذلك للشركاء الآخرين بعد موت العالم الخائن لزملائه وللبشرية وبعد ضياع التجربة والدواء وضياع سنوات من البحث دون كلل حتى أمكنهم معرفة مكان التجربة .

والآن يحاولون استعادتها كما تعلمون. أما المثير والجديد في الأمر فهو الورقة الثانية التي فيها تصنيع الفيروس والآن لدينا هنا معادلة تصنيع الفيروس ، وأيضاً الترياق الذي يحمله دم الفتى.

فقال أحد العلماء :

ـ ولكن يا سيادة العميد ألا يكون دم الفتى قد تغيَّر بعد هذه السنوات الطويلة وأصبح بلا قيمة ؟

- لا . يا دكتور نحن نتابع العينة المعملية ، ونتابع الفتى أيضاً بالتعاون مع كبير القبيلة ، فمازالت دماؤه تحمل الترياق ، وقد قمنا

بتصنيع كمية منه تحسباً لأي شيء قد يصيب الفتى.

ثم قال عالم آخر :

ـ ولكن ما فائدة الورقة التي بها المعادلة مازالت ناقصة؟

- فقال سيادة العميد سيعمل رجالنا عليها منذ الآن.

وهنا صرخ دكتور منصور وقال:

ـ لا داعي لذلك سيادة العميد !

فنظر الجميع إليه بدهشة بالغة ، فأكمل حديثه قائلاً :

ـ لقد نسينا شيئاً هاماً قد يكون هو مفتاح اللغز – الورقة الأولى سيادة العميد (ابحث عن الختم) فلماذا لا نبحث عن الختم ؟؟

وهنا صرخ سيادة العميد قائلاً:

ـ الختم ! وجدت الختم !

ثم انطلق خارج الحجرة ، وعاد مرة أخرى. وقال:

ـ الآن أصبح الأمر خطيراً .

ودخل وراء سيادة العميد رجل قوى ألقى عليه التحية الرسمية وانتظر الأوامر التي كتبها على عجالة سيادة العميد في ورقة أمامه ثم أعطاها للرجل الذي انطلق فوراً دون كلمة واحدة ، وزادت حيرة الجميع ، فضغط سيادة العميدة جرساً بجواره ؛ فدخل مسؤول البوفيه فأمره بإعداد القهوة للجميع انتظاراً لمفا جأة مذهلة .

لم ينته الجميع من تناول قهوتهم حتى دخل إلى الحجرة رجل

يوحى مظهره أنه من العلماء فقام العميد من مجلسه واستقبله، ثم قال :

ـ أتذكر يا دكتور تلك العلامة الغريبة التي وجدتها في ظهر الفتى الأفريقي (التجربة ٧٧) وقد قمنا بتصويرها .

فقال العالم :

ـ نعم سياده العميد ، وها هي الصور كما طلبتها منذ قليل !

فأخذها العميد وقدَّمها للدكتور منصور الذى ابتسم فقد كان يعلم ما يدور في عقل سيادة العميد ، فقام بفحص الصورة ، وتناول أحد الأقلام وقام بكتابة بعض الرموز والأرقام في ورقة صغيرة ، تم نقلها من الصورة التي أعطالها له سيادة العميد في سرعة غريبة والجميع في ذهول تام إلا سيادة العميد ، ومنصور فقد علم كلٌّ منهما أن الختم الموجود بظهر الفتى يحتوي على الرموز الناقصة في معادلة الفيروس وهذا هو الختم وما يحتويه .

وساد الصمت على الجميع ، وقطعه منصور قائلاً :

ـ ولكن زين الآن في خطر داهم .

وقصَّ عليه ما يدور في أرض الواحة الآن ، فقال :

ـ احتاج إلى هند الآن.

فجحظت عينا منصور مرة أخرى ، وقال :

ـ وتعلم أيضاً أن هند ليست هنا.

وانطلق الجميع إلى فيلا منصور فقد كانت هناك رسالة هامة يريد سيادة العميد إرسالها إلى كبير الواحة ، ورسالة أخرى سيقوم هو بإرسالها إلى رجاله بوسائله الخاصة.

***

استقبلت هند منصوراً بتوتر بالغ ، ولكن لم يدم الوقت كثيراً فقد تدخل سيادة العميد في الحوار ، وطلب من هند أن تتواصل مع أبيها أن يجمد كل شيء ؛ فقد انتهى الأمر .

وتواصلت هند مع أبيها ، ثم قالت:

ـ هناك صراع غريب في الواحة، فقد تجمع رجال الواحة حول الرجال الغرباء ، وأبرحوهم ضرباً قاتلاً !

فضحك سيادة العميد ضحكة عالية ، ونظر الجميع بدهشة لتلك الضحكة الغريبة ، لكنه أشار لهند أن تكمل حديثها فقالت :

ـ يقول أبي إن أحد الرجال شاهد أحدهم يغازل إحدى بنات الواحة فأبرحه ضرباً والرجل ينكر ذلك ، وأمسكت مجموعة من الرجال بهؤلاء الغرباء في انتظار شرطة السياحة فحاولوا الهرب ولكن لم يستطيعوا ، فانضم إليهم زملاؤهم ، وتجمع رجال الواحة ونساؤها حولهم وكادوا أن يفتكوا بهم .

وهنا انطلقت ضحكة أخرى قوية من قلب سيادة العميد وقال:

ـ لقد انتهى الأمر ، سيتم القبض عليهم بتهمة دخول البلاد وإثارة الفوضى، وسننظر كيف سنتعامل مع الأمر الذى يبدو في

ظاهره جريمة سياحية على أرض أجنبية .

فقال منصور :

ـ خناقة مفتعلة حتى نبقى بعيداً عن الهدف الحقيقي وكما كانت في الظاهر مستشفى وهي ليس إلا مختبراً لنشر الوباء .

فقال أحد العلماء :

ـ مافيا الدواء والحروب البيولوجية !

ثم قال منصور بخوف :

ولكن زين ؟؟

فقال سيادة العميد :

ـ هو في أيد أمينة ، لا تخش شيئاً ، مستحيل أن يخرج من أرض الحضارات ماً يبيد البشر ، ويدمر الحضارات ، وستبقى التجربة والدواء في طي الكتمان إلى الأبد.